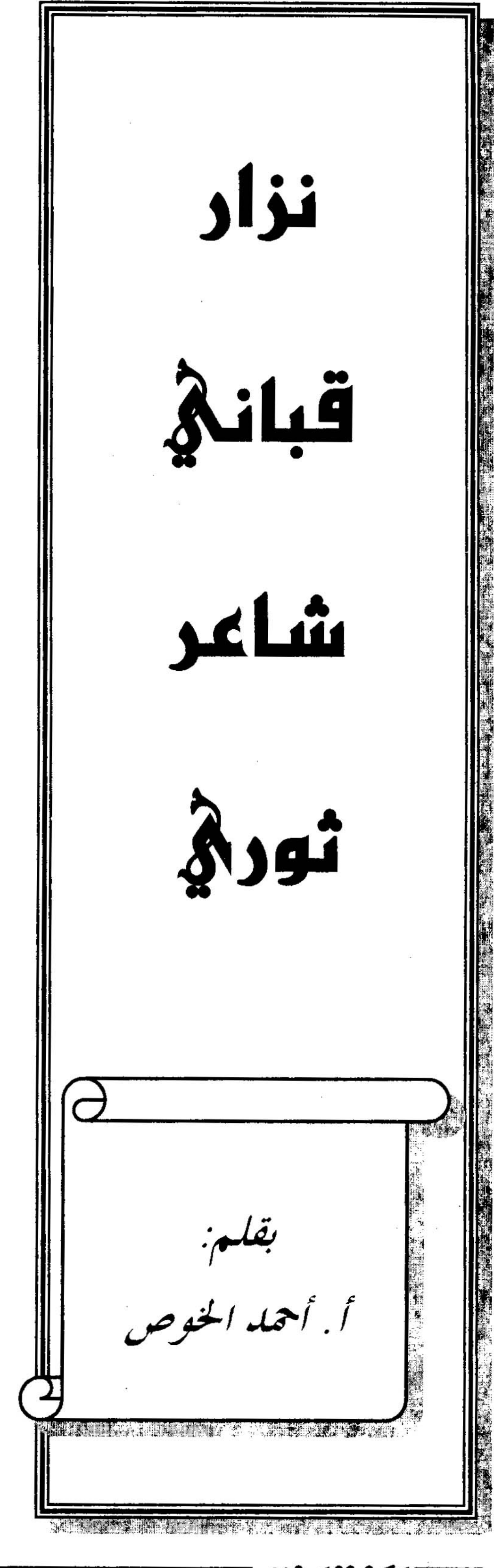


بقلم:
أ. أحمد الخوص

«الشعرُ أعذبُهُ الكذوبُ»
قالوا وما صدقوا
لأنهمو تنابلةٌ وعُور
يا شعرُ حَطِّمْ هذه الأوثان
واقتحمِ الخطوب
وتعالَ نرتادُ البحار
ونجتلي نجم الشعوب
أنا ذاهب كي أقرع الأجراس
كي أطأَ اللهيبْ

هكــذا أطلقها عبد الوهاب البياتي صيحة مدويّة مجلجلةً في قصيدة «الشعر والثورة»، أن مهمــة الــشعر في عصر الثورات الملتهبة والبــراكين المشتعلة قد تغيرت عن كل العهود الــسابقة، حيث كان الشعر مديحاً ورثاءً غزلاً وتصوفاً إلخ.

أما بالنسبة لنزار قباني فهو شاعرٌ ثوريٌ من الطراز الأول، إذا اعتبرنا حسب ما يرى أن الــثورة تشمل المرأة والوطن على حد سواء، لــذلك أراد نــزار أن يقــتل شــهريار، ويقمع صــوته، وقد تحدث عن الرجل الماكر الجزار القاتــل، إنه شهريار الذي ينام مع النساء، ثم يقــتلهنّ حــيث يقول نزار في قصيدة «الرسم بالكلمات»:

.. واليومَ أجلسُ فوقَ سطحِ سفينتي
كاللّص.. أبحثُ عَنْ طريقٍ نَجاة
أين السبايا؟. أينَ ما ملكتْ يدي؟
أينَ البخورُ يضوعُ من حُجُراتي؟
اليومَ تنتقمُ النهودُ لنفسها..
وتردُّ لي الطعنات بالطعنات..

ويخيب أمل شهرَيار، حيث اكتشف أن كل مــا حــصله هو سراب ووهم وأن الجنس في النهاية هو لا شيء.

ولا شــك أن الــشاعر لا يتكلم بصوته، وإنما يعبر عن ملايين الأصوات، وما يأتي في شــعره لــيس بالضرورة هو ترجمة لتجربته الشخــصية، فالــشاعر صــوت معبر عن كل المسحوقين والمأزومين والمعذبين في الأرض.

ولقد ظل شعر نزار قباني يتوجه نحو المرأة، يخاطبها، ويحرضها، ويرعاها، ويسدي إليها نصائح الثورة، ولكن منذ عام ١٩٦٧ حصل لدى الشاعر انعطافة حادة نحو الشعر السياسي، لأن الشعر كما رآه وحدة متكاملة، وهو مثلما عشق المرأة، وكتب عنها، وقاتل بكل قواه من أجل تحريرها من براثن الرجل العربي، كذلك قاتل من أجل تحرير الوطن من براثن التخلف والاستعمار والجهل، وليس من تناقض بين المرأة والوطن.

ويُعتبر هذا الشاعر إنسان وطني، يهتم بمجتمعه، كما يهتم بالمرأة والحب. يقول نزار قباني في قصيدة «ملاحظات في زمن الحب والحرب»:

وأنّي أحبك أكثر من أيِّ يومٍ مضى..
ألاحظتِ كيفَ اخترقْنَا جدارَ الزمَن،..؟
وصارتَ مساحَةُ عينيْكِ..
مثلَ مساحة هذا الوطنْ..

هكذا.. فقد بقي شاعرنا يدافع عن المرأة، ويحمل قضيتها صليباً من المتاعب خمسين عاماً بكل تواضع وإنسانية وأصالة ووطنية.

ومن أجل هذا الشعر الصادق والمتألق هناك ناس رشقوه بحجارة الحسد، وهناك من استقبله بالورود إعجاباً من المحبين الشرفاء الوطنيين، فقد تربع عرش الشعر، وأصبح شاعر الوطن العربي كله ووقف إلى جانب المرأة، لتنتزع حريتها بنفسها، فرفض أن يعيش في نصف وطن، والوطن يتكون من رجل وامرأة، وثارت ثائرته، لا لن ننتصر على أعدائنا بنصف وطن، ولن نحقق وجودنا أو نغير عصرنا أو نرتقي إلى الحضارة بنصف وطن وغدت المرأة قضيته الأولى... إنها قضية الإنسان، قضية الوطن، قضية الأمة بأكملها..

والمرأة تحاسب على كل تصرف من تصرفاتها أو عمل من أعمالها، بينما الرجل خارج نطاق المحاسبة إذا ما تصرف تصرفاً خطأ، فيقول نزار في هذا المجال معبراً عن واقع المرأة المرير من حيث حقوقها إذا ما نادت بأحدها هذه الواجبات:

«لماذا نكتب قواعد الشر ومبادئ الأخلاق على جسد المرأة وحدها، بينما يبقى الرجل خارج سلطة الشرائع والقوانين يحكم ولا يحكم عليه ويحمل شهادة حسن سلوك وحكماً بالبراءة من كل التهم الجنسية العلنية التي اقترفها.. وتشهد على ذلك الأمثال الشعبية «الرجل إذا زنا كالسيف إذا انجلى».. إنه إرهاب أخلاقي رجعي يجرد المرأة من إنسانيتها ويتركها ذبيحة، نعجة شاة لا فرق..».

ويعتبر نزار أن كرامة المرأة من كرامة الوطن، وأنه لا كرامة للوطن دون تحرير المرأة من الإجحاف، وأخذ مفاتيحها بيدها لتكون مسؤولة عن تصرفاتها، وهي التي منحها الله العقل والإرادة والتصرف، فأعلن نزار قضيته هدفه..

فيقول:

«لا لن نتحضّر ولن يتحرر المجتمع العربي ولن نتقدم إلاّ حينما يغير الرجل نظرته إلى المرأة من شريحة لحم إلى بستان أزهار، فالمرأة هي الحضارة».

وهكذا دافع نزار عن كرامة المرأة وحريتها، فالمرأة التي يحبها نزار هي قيمة - كرامة - حرية. وهل هناك قيمة أغلى من قيمة التراب، وهل هناك كرامة أغلى من كرامة الوطن، وحرية المرأة تبدأ من تحرير الوطن من الجهل.

ولا بد لأي إنسان حين يتكلم عن شيء إلاّ أن يتحدث عن الضدّ لأنه بضدّها تعرف الأشياء، فها هو نزار يشهد على جميع الجرائم العلمية التي ارتكبها الرجل بحق المرأة، وأعلن رفضها وأن لا طريق للوطن إلاّ عن طريق المرأة. يقول نزار وهو يهاجم تصرفات الرجل تجاه المرأة، وفي حين كان نزار يعري الرجل ويظهر عقده وتناقضاته وازدواجيته،

يحذرِ المرأة من أن تبيع نفسها، جسدها للمال. قائلا:

«لأنني شاهد رئيسي على كل الجرائم العلمية التي يرتكبها الرجل وتنزل عقوبتها على جسد المرأة يسمونني شاعر الفضيحة.. إنني لا أضيق بهذه التسمية فكل مبدع بالضرورة صوت معارض..».

واستمر يدافع عن الحب والمرأة.. المرأة هي الوطن، ونزار يحب المرأة ويترافع عن المرأة لأنه يحب وطنه.. فيقول:

«إنني أكتب عن المرأة وعن القضية العربية بحبر واحد.

وأقاتل من أجل تحرير المرأة من رسوبات العصر الجاهلي كما أقاتل من أجل تحرير الأرض من حوافر الخيول الإسرائيلية، أنا موجود في عيون الجميلات كما أنا موجود في فوهات البنادق.. بالنسبة لشعري لا يوجد أمام ولا يوجد وراء وإنما يوجد الشعر نفسه، الشعر المنفعل بالعصر، بالأرض، بالإنسان...».

وأوّل ما يلفت النظر تجاه هذا الشاعر أنه دعا إلى تحرير المرأة، وبشّرها بطريق الخلاص من الجهل المطبق الذي أبعدها عن تيار الوعي والنضال اللذين لا بد منهما، إذا أردنا أن تكون المرأة إلى جانب الرجل في النضال والتحرير حتى يصبح المجتمع يداً واحدة، وفكراً واحداً في ظل الشرائع السماوية التي هبطت إلى أرضنا لتكون منارة ضياء للشعوب المغلوبة على أمرها.

وإن أول ما يثير انتباهنا في ديوان « قالت لي السمراء» هو العنوان.

فهو بحد ذاته فكرة لم تكن مستساغة في مجتمعاتنا، وهي الاستماع إلى المرأة إن كان قولها رأياً أو همّاً أو إحساساً أو حتى رفضاً، وكلمة سمراء العنوان بشكل واضح المرأة العربية لما تتسم به من سمرة نتيجة المناخ والبيئة.

إذاً المرأة العربية هي التي تقول لا للرجل، وهذه المرأة هي التي يريد نزار قباني جعلها أمثولة للنساء، ومحركاً لهنّ للقول والتعبير والرفض.

ونلاحظ في أوائل هذا القرن الاضطهاد والمنع والطوق الواقع على المرأة العربية في مجتمعنا العربي، فحكومة الملك فيصل مثلا عَنيت بفتح المدارس للبنات، فانتفض الشعب، وتظاهر وكان ينادي «القبر ولا المدرسة»، فقد ظهرت أصوات كثيرة، ومن ضمنها رفاعة الطهطاوي وقاسم أمين ومحمد عبده وحافظ إبراهيم تحمل شعار العدالة الاجتماعية والتغيير نحو الأفضل، والمطالبة بحقوق المرأة والمساواة بينها وبين الرجل، وقد تفاعلت هذه الأصوات جميعاً امتزج بعض ببعض نحو هدف واحد وهو الدخول في الحضارة من جديد، إذ كيف نسعى إلى مجتمع متمدن وحضاري، طالما نصفه الأول في الضوء ونصفه الثاني قابع في الظلام؟ يقول نزار في قصيدة «مكابرة»:

فيهمس لي: أنت تعبدها
لماذا تكابر.. أو تكتم؟..
وتلكَ القصائدُ أشدو بها
أم خلفها امرأةٌ تُلْهِمُ؟
تراني أحبُّك؟ لا. لا. محالٌ
أنا لا أحبُّ ولا أغرمُ
إلى أن يَضيقَ فؤادي بسرّي
ألحُّ. وأرجو. وأستفهمُ.

ومن خلال هذا المقطع يضرب نزار كل الموروث المحمول في ذاكرة بعض الناس حول دور المرأة في الحياة. فهي ممنوعة منعاً باتاً من الاستمتاع بضوء الشمس وطراوة الهواء ومصاحبة البشر. وهي تعيش وراء النوافذ.. وإذا أُذنَ لها بالخروج، تحتم عليها أن تغطي جسمها من قمة رأسها إلى أخمص القدم.

ويقول الكاتب الأجنبي أوريزون في وصفه لحالة المرأة من خلال ما شاهده في

بـدايات هذا القرن: «وإذ تتنقل في هذا الزي الغريب تشبه خيمة صغيرة تتمايل بارتباك».

ويتـضمن الديـوان أيـضاً دعوة بارزة للمرأة بأن تثور، وتنطلق نحو حرية لا أخالها الجـسد كمـا ورد في معظم القصائد، بل هناك شيء أهم وأقوى من هذا ألا وهو الدعوة إلى ملامـسة الحرية بالجسد، والروح، والانفلات من أغلال تزداد كل يوم، فيطلب من المرأة أن تكـتب وتراسـل حبيـبها علانية إذ يقول في قصيدة «اكتبي لي»:

إلـيَّ اكتبـي مـا شـئت.. إنـي أحـبُّهُ
وأتلـوه شـعراً.. ذلـكَ الأدبَ الحُلـوا

علـيَّ اقصـصي أنـباءَ نفسك.. وابعثـي
بـشكواكِ. مـن مثلـي يـشاركَك الشكوى؟

إلـيَّ اكتبـي إمّـا وُجِـدْتِ وحـيدةً
تدغـدغكِ الأحـلامُ فـي ذلـكَ المـأوى

ومـا بـكِ تـرتابين؟ هـل مـن غـضاضة
إذا كَتـبتْ أُخـتُ الهـوى للـذي تَهـوى؟

فالدعـوة إلى تحرير المرأة شملت على الأصـعدة كلها، فهي دينية واجتماعية وأدبية واقتـصادية، وطـرح المـشكلة والجهـر بها علانية.

ولعـل الـثورية التي يحمل طياتها شعر نـزار قبانـي فـي المرأة والوطن ثورية، لم يـشهدها شعرنا العربي القديم والحديث، وذلك ما يدل على شجاعة شاعرنا نزار قباني، يقول جميل الدويهي:

«إنه الفارس العربي الشجاع، الذي جاء مـن قصص قديمة ليقتحم آفاق المستقبل، بل هو المناضل الصادق، يطعن بكلمته قلب الريح، ويترك على جبين الهزيمة دماً.

إنه في كل مناسبة صرخة عالية، ويقظة فكـر مقاوم. شعر القباني فعلَ في المخ كما لم تفعل العاصفة، لأنه سهل في أدائه، عميق في معانيه، وفريد في مكانه وزمانه.

وعـندما أمعـنت سكاكين الردة في لغتنا تقتيلاً تصدّى لها بقوة، مدافعاً عن أمته وتراث أجـداده، مـؤكداً أن الجمال الحقيقي هو جمال الوردة والنبع والسماء، جمال البساطة في كل شيء».

هـذا الـشاعر العربـي لـم ينتسب إلاَّ لحقيقته. والحقيقة هي سلاح الذات في معركة الـبقاء.. إنـه ملـيك فـي بلاده، لأن كلامه كالملوك، ولأنه عظيم في انتمائه إلى الحرية".

ونزارٌ شاعر مرهف الإحساس إلى درجة عالية جدا، تخطّى بذلك أقنعة الشعراء القدماء والمعاصرين، فلا شيء مستور عنده، ولا يتقي فـيما يقـول لـومة لائـم، وقد جاء في مقال للأستاذ يوسف عادلة يدلل على ذلك بقوله:

«وكانـت لـه شـجاعة كافـية تخلّـى بواسـطتها عـن أقنعة كثيرة، وثياب مسرحية ارتداها كثير من الشعراء قبله وبعده.

عنده لا شيء مستور، فهو شاعر مرهف الإحـساس والـشعور، لكنه لا يتقي في قوله لـومة لائـم. تأخذه المرأة إلى عالمها، ودون اسـتئذان يـدخل عليها، أما هي فلا تشكو من المفاجأة ولا يشكو هو من الإقامة في عالمها، لكـن مـا يشكو منه أن ترأف به الجميلة، لأن جمالها أكثر جمالاً مما كان يتصور.

وحيال هذا الجمال يطلب منها أن تخلصه مـن نفـسه» فيقول في ديوانه «مئة قصيدة حب» من المقطع «١٧»:

كلّما رأيتُك..
أيأسُ من قَصائدي.
إنني لا أيأسُ من قصائدي
إلا حين أكونُ معك..
جميلةٌ أنت.. إلى درجة أنني
حينَ أفكّرُ بروعَتك.. ألهث..
ولا يلهثُ هو وحدَه بل:
تلهثُ لغتي
وتلهثُ مفرداتي.

وعندما يدرك أنه فقد توازنه أو كاد، يطلب «النجدة» منها:

خلصيني من هذا الإشكال
كوني أقلَّ جمالاً
حتى أستردَّ شاعريتي
كوني امرأةً عاديَّة..
تتكحّل.. وتتعطّر.. وتحبل.. وتلدْ
كوني امرأة مثل كلّ النساء..
حتى أتصالحَ مع لغتي..
ومعَ فمي..

وإذا كان المثل العامي يقول: «ضرب الحبيب زبيب»، فكيف حب الحبيب لا ضربه في نظر النساء جميعهنّ؟ ونزار قباني يمدحهنّ، وإذا انتقد امرأة ظنت هذه المرأة أنها ليست المقصودة في ذلك النقد. يقول عبد الغني طليس في هذا المضمار:

«نزار قباني يعرف أن الحبيب إذا عرف مكانه.. تدلل.

وهو يعرف مكانه بالضبط، يعرف أنه حبيب. شاعر إذا مدح المرأة، فكل النساء يعتبرن المديح لهنّ. وإذا انتقدها فكل النساء يعتبرن النقد لغيرهنّ.. شاعر إذا مدح السياسية، فكل السياسيين يعتبرون المديح لهم. وإذا انتقدهم يعتبرون النقد لغيرهم.

شاعر إذا شهر سيفه في وجه القمع العربي. فكل القامعين يظنونه يعني آخرين.. وإذا تأكدوا أنه يعنيهم «تأكدوا» أنه يعني «آخرين»؟!

إنه الحبيب، وضرب الحبيب زبيب».

ولقد كانت ثورة نزار على مجتمعه وعلى نظم الحكم في البلدان العربية أشدّ وقعاً وأكثر قوةً وشراسة، فيقول:

«حين خرج الإنسان العربي في مطلع العشرينات من غرفة التخدير، وبدأ يستعيد وعيه الوجودي والسياسي، ويسترد فكره المحجوز عليه، أدرك أن وضعه الجديد يحتاج إلى كلام جديد، وأن الخروج من عصر الانحطاط لا يكون إلا بالخروج من ثياب عصور الانحطاط، وعقلية عصور الانحطاط، وقبل كل شيء، من لغة ومفردات عصور الانحطاط.

إن التحولات السياسية العنيفة التي تعرضت لها المنطقة العربية في مطلع هذا القرن، ما كان يمكن أن تتم بمنأى عن تحولات مماثلة في عقل الإنسان العربي، وفي لغته.

الثورة فعل جديد، وكلام جديد في آن واحد، أي تطبيق ورؤيا، ويصعب عليَّ أن أتصور ثورة جديدة تعيد نفس الكلام القديم».

لذلك نرى أن القصيدة عند نزار قباني هي:

«القصيدة طعنة جميلة ينبت على ضفافها القمح وشقائق النعمان.

طعنة ينزف منها اثنان.. الطاعن والمطعون، الشاعر والمتلقي

القصيدة عمل تحريضي من الطراز الأول.. وليست كرسيّاً هزّازاً يساعد على الارتخاء.. ويجلب النعاس.

القصيدة عندي ليست حبة فاليوم، ولا جهازاً لتكييف الهواء.. ولا مخدّة من ريش العصافير.

القصيدة ليست مضيفة طيران لتأمين راحتكم، إنها – على العكس – محاولة لإقلاق راحتكم.

مهمة القصيدة أن تشعل النار، لا أن تطفئ الحرائق كما يفعل رجال الإطفاء. مهمتها أن تخالف جميع أنظمة السير.. لا أن تكون شرطيّ سير..».

ويعبر نزار عن ذلك شعراً في قصيدته «لماذا أكتب»:

أكتبُ..
كي أفجّرَ الأشياءَ، والكتابة انفجارْ
أكتبُ..
كي ينتصرَ الضوءُ على العتمةِ،
والقصيدةُ انتصارْ..
أكتبُ..
كي تقرأني سنابلُ القمحِ،

وكي تقرأني الأشجارْ
أكتبُ..
كي تفهمني الوردة، والنجمةُ، والعصفورُ،
والقطةُ، والأسماكَ، والأصدافُ، والمحارْ..

* * *

أكتبُ
حتى أُنقذَ العالمَ من أضراسِ هولاكو.
ومن حكم الميليشيات،
ومن جنونِ قائدِ العصابهْ
أكتبُ..
حتى أنقذَ النساءَ من أقبيةِ الطغاةِ
من مدائن الأموات،
من تعدد الزوجاتَ
من تشابه الأيامِ،
والصقيعِ، والرتابَهْ
أكتبُ..
حتى أنقذَ الكلمةَ من محاكم التفتيش..
من شمشمة الكلاب،
من مشانقِ الرقابَهَ...

ولم يكتَف نزار بإشعال ثورة من أجل تحرير الإنسان من ظلام الجهل واستبداد الحاكم، وتحرير المرأة من غياهب السجن وأعماق القبور، بل طالب بالثورة من أجل تحرير الكلمة من سيطرة أصحاب النفوذ والأغنياء الذين أتخمهم البترول، وملأت خزائنهم الدولارات، ووقف شراء الضمائر، فيقول:

« نحنُ بحاجة إلى شعر ينهي وصاية رأس المال على الكلمة.. ويوقف تدخل «البترودولار» في شراء ضمير الخليل بن أحمد الفراهيدي.. وتقديم الأحذية الإيطالية لزوجته.. وأشرطة الفيديو كاسيت لأولاده..

نحن بحاجة إلى شاعر لا ينحني في حضرة الخليفة.. وإنما ينحني الخليفة في حضرة شعره».

ومن أجل ذلك قرر الشاعر نزار قباني أن يقود الثورة بنفسه، ويشعلها من خلال كتاباته الشعرية والنثرية، فقال:

«وأقول لكم إنني شاعر، قرّر بينه وبين نفسه في الأربعينات أن يشعل اللغة من أول نقطة حبر حتى آخر نقطة حبر.. ويشعل الوطن الممتد من البحر إلى البحر.. ومن القهر إلى القهر..

خريطة الأشياء لم تكن تعجبني.. فلخبطتها.

ووجه أبي جهل لم يكن يعجبني.. فلخبطته..».

فمن هو نزار قباني إذاً؟
يجيبُ الشاعر:
«أنا شاعر مزروع كالرمح في الزمن العربي
أنا أدميه.. وهو يدميني
أنا أحاول أن أفضحه، وهو يحاول استئصال حنجرتي
أنا أحاول تحديه.. وهو يحاول رشوتي..
إن غريزة الصراخ هي أقوى غرائزي.»

وقد عبّر نزار عن ذلك شعراً، فقال في قصيدته «تقرير سري جداً.. من بلاد قمعستان»:

يا أصدقائي:
أنتمُ الشعرُ الحقيقيُّ
ولا يهمُّ أن يضحكَ.. أو يعبسَ..
أو أن يغضبَ السلطانْ..
أنتم سلاطيني..
ومنكم أستمدُّ المجدَ، والقوةَ، والسلطانْ..
قصائدي ممنوعةٌ..
في المدنِ التي تنام فوق الملحِ والحجارَهْ
قصائدي ممنوعةٌ..
لأنها تحملُ للإنسانِ عطرَ الحبِّ والحضارَهْ
قصائدي مرفوضةٌ..
لأنها لكلِّ بيت تحملُ البشارَهْ
يا أصدقائي:

إنني مازلت بانتظاركمْ
لنوقدَ الشرارهْ..

ولقد وجد نزار نفسه في حالة صدام يومية مع السياسيين الذين يمارسون القمع والقتل والسحل وكم الأفواه جهاراً ونهاراً لا يردعهم رادع ولا يقف في وجههم معترض فيقول:

«أرى نفسي في حالة صدام يومية مع الذين يحترفون الزنى السياسي العلني على أرصفة الوطن العربي، مع هذا السيرك الكبير الذي مازالت حيواناته المدرّبة تقرقش عظام الشعب العربي كما يقرقش السنجاب حبة البندق...».

وقد عبّر نزار عن ذلك شعراً في قصيدته «هجم النفط مثل ذئب علينا»:

مـن خـراب الخـراب.. جـاءَ إلـيكمْ
حـاملاً مـوتَهُ علـى كتفـيهِ

أيَّ شـعْرٍ تُـرى، تـريدون مـنه
والمَسـاميرُ، بعـدُ، فـي معصميهِ..

يـا بـلاداً بـلا شـعوب.. أفيقي
واسحبي المسـتبدَّ مـنْ رجلـيه

يـا بـلاداً تـستعذبُ القمـعَ.. حتّى
صـارَ عقـلُ الإنسانِ فـي قدميهِ

كـيف يـا سـادتي، يُغنـي المغنّي
بعـدما خـيّطوا لـه شـفتيه؟

هـل إذا مـاتَ شـاعرٌ عربـيٌّ
يجـدُ اليومَ مـن يـصليَ علـيه؟...

مـن شـظايا بيـروتَ.. جـاءَ إلـيكمْ
والسكاكينُ مـزّقتْ رئتـيه

رافعـاً رايـةَ العدالـة والحـبّ..
وسـيفُ الجلادِ يُومـي إلـيه

قـد تـساوتْ كـلُّ المـشانقِ طـولاً
وتـساوى شـكلُ الـسجونَ لديـه

لا يـبوسُ اليدينَ شـعري.. وأحـرى
بالسلاطينِ، أن يبوسـوا يديـه...

ولكن كيف سيخاطب نزار الأجيال العربية التي لا يعرفها؟ يبدو أن نزاراً جاد في البحث عن لغة تكون هي القاسم المشترك بينه وبين هذه الأجيال، وملايين العقول التي لم تتشكل بعد، ولكنها سوف تشكّل بصورة حتمية داخل الشعر وداخل الثورة، يقول:

«أنا كاتب يحاول أن يفتح الدنيا بقاموس لا يتجاوز ألف كلمة.. ليس عندي عساكر.. أو خيول.. أو أشعة لايزر.. أو صواريخ عابرة للقارات.. أو حاملات طائرات.. أو رادارات..

إن قلبي هو الرادار الأكثر دقة وحساسية في التقاط الإشارات الصادرة عن الإنسان..».

وإن رفض نزار الشديد للأوضاع العربية المتخلفة والسلبية قد جعلت غضبه لا حدود له، فيقول:

«صعب أن أحدد لك حدود غضبي.. فطالما أن مقصّ إسرائيل يقصُّ كل يوم جزءاً من تاريخي.. وجزءاً من جغرافيتي.. وجزءاً من كتب ودفاتر، ومستقبل أولادي، وطالما أن جثث الأطفال العرب الذين تحصدهم طائرات ف - ١٦، تطفو كل صباح على وجه فنجان قهوتي.. فإن غضبي بحر لا ساحل له..».

ويعبر عن ذلك شعراً، فيقول في قصيدته «هوامش على دفتر الهزيمة»:

لا حربُنا حربٌ، ولا سلامُنا سلامْ
جميعُ ما يمرُّ في حياتنا
ليسَ سوى أفلامْ..

* * *

هزيمةٌ..
وراءَها هزيمةٌ..
وراءَها هزيمةٌ..
كيف لنا أن نربحَ الحرب
إذا كان الذين مثّلوا..

وصوَّروا..
وأخرجوا..
وتعلموا القتالَ في وزارةِ الإعلامْ؟؟
* * *
طائرةُ (الفانتوم)..
تنقضُّ على رؤوسنا
ونحن نستقوي بزنَّارِ (أبي تمام)!
الحربُ..
لا تَربَحُها وظائف الإنشاءْ
ولا التشابيهُ.. ولا النعوتُ.. والأسماء
مقتلُنا يكمن في لساننا
فكم دفعْنا غالياً ضريبَةَ الكلامْ.

أما هذا الوطن العربي الممتد من المحيط إلى الخليج الغني بثرواته الاستراتيجية إضافة إلى موقعه في قلب العالم القديم، فقد كان هدفاً للتقسيم والتجزئة، إلى أن صارت دويلات ممسوخة متناحرة، قد غرق حكامها في أنانيتهم، وفرديتهم، ونرجسيتهم وعبادة الذات، هذا ما قاله نزار ويتابع:

«هل تريدني أن أبتهج للبيارق.. والمخافر، وأكياس الرمل التي تصطدم بها وأنت تعبر الحدود بين خيام الأوس والخزرج.. وداحس والغبراء؟

أما أنا فسوف أبقى ساحباً سيفي في وجه عصر الانحطاط العربي.. حتى أقتله.. أو يقتلني..».

ويعبر نزار عن هذه الحال العربية المزرية شعراً، فيقول في قصيدته «التأشيرة»:

في مركز العذاب، حيث الشمس لا تدورْ..
والوقت لا يدورْ..
وحيث لا يبقى من الإنسانِ غيرُ الليفِ والقشورْ
يمتدُ خطٌ أحمرٌ..
ما بين برلينينِ، بيروتينِ، صنعائينِ،
مكتينِ، مصحفينِ، قبلتينِ،
مذهبينِ،
لهجتينِ،
حارتينِ،
شارتي مرورْ..
* * *
أين أنا؟
ما بينَ كل شارعٍ وشارعٍ..
قامت بلدْ..
ما بينِ كل حائطٍ وحائطٍ..
قامت بلدْ..
ما بينِ كل نخلة وظلِّها..
قامت بلدْ..
ما بين كل امرأةٍ وطفلها..
قامت بلد..
يا خالقي: يا راسمَ الأفقِ، ويا مهندسَ السماءْ!
هل ذلك الثقب الذي ليس يُرى
هو البلدْ؟؟؟.

وهكذا نرى أن الشاعر نزاراً قد أعلن ثورة بنارين، الأولى للمرأة والثانية للوطن وهو يقول:

«أنا لا أضع خطّاً بين كتاباتي عن المرأة.. وكتاباتي عن الوطن.. فكل ما أكتبه يستهدف التغيير.. والتحرير.. وقد فسّرت هذا إحدى قصائدي القصيرة:

كلّما غنّيت باسم امرأة..
أسقطوا قوميتي عنّي وقالوا:
كيف لا تكتبُ شعراً للوطنْ؟
وهل المرأةُ شيء آخرٌ غير الوطنْ؟..
آه.. لو يدركُ من يقرؤني
أن ما أكتبُهُ في الحبِّ..
مكتوبٌ لتحرير الوطنْ..».

وأخيراً يقولون: إن المرأة نصف المجتمع، ولا شك أن الوطن نصفه الآخر. وهكذا حمل نزار قباني المجتمع على ظهره وفي قلبه، وهو يعالج قضايا المرأة كالتعليم والحرية إلى جانب قضايا الوطن كالاستقلال وسد الثغور في وجه الأعداء وإنشاء جيلٍ مؤمن بأرضه، بقومه، بمستقبله عن طريقٍ تحرير المرأة، وبتحريرها يتحرر الوطن.






أسمر..

شعر: مدحة عكاش

فــدتكَ الملاحــةُ يــا أسمَــرُ
وغِــنَّتْ مفاتــنَكَ الأعــصُرُ

يــرِفُّ ســناكَ علــى مقلَــتي
ويخطــرُ قلــبيَ إذْ تخطُــرُ

كأنِّــي أَمْــرحُ في جَــنَّةٍ
إذا لاحَ لــي وجهُــكَ الخيِّــرُ

فــأنعَمُ مــن حُــسنِهِ مــا أشــاءُ
ومــا يرتــضي قلــبيَ المقْفِــرُ

وكــمْ قــد قطعــتُ علــيكَ الطــريقَ
فكــنتَ تمــرُّ ولا تَنْظُــرُ

* * *







تجاهلـــــتَ يـــا حلـــوُ في ناظِـــري
غـــــراماً يعـــــزُّ ويـــــستكبِرُ

وأغنــــيَةً صُــــغتُها مِــــن هَــــواكَ
وأوحــــى يعــــزُّ ويــــستكبِرُ

وأغنــــيةً صُــــغْتُها مِــــن هَــــوَاكَ
وأوحــــى بهــــا طــــرفُكَ المُــــسْكِرُ

أعيــــنُكَ والهُــــدْبُ؟ أَمْ روضــــةٌ
يداعــــبُها لــــيلُهَا المقمــــرُ

وجعــــدةُ شَــــعْرِكَ يــــا سَــــعْدَها
وقــــد مَــــسَّها هُــــدْبُكَ المُــــشْهِرُ

أأومِــــنُ يــــا فــــاتني بالهَــــوى
وأنــــتَ بهــــذا الهَــــوى تكفُــــرُ

حــــرامٌ علــــيكَ ضَــــنى شــــاعرٍ
تُعَــــذّبُ أنــــتَ، ويَــــستغفِرُ

يُغنّــــي، ويمــــلأُ سمــــعَ الــــزَمان:
فَــــدَتْكَ الملاحــــةُ يــــا أسمَــــرُ






عبد الرحيم الحصني شاعر كلاسيكي أصيل، ولد في حمص عام ١٩٢٩، وتلقى دراسته الإعدادية والثانوية في الكلية الشرعية بحمص حتى نال الشهادة الثانوية. عمل بعد تخرجه في بلدية حمص، ثم تفرغ للعمل في فرع اتحاد الكتاب العرب.

بدأ كتابة الشعر عام ١٩٤٩، ونشر أولى قصائده عام ١٩٥١، وانتخب عضواً في لجنة الشعر في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، واتحاد الكتاب العرب (جمعية الشعر) وحضر العديد من الندوات والمؤتمرات والمهرجانات الأدبية والشعرية في سورية والبلدان العربية والأوروبية كمهرجان البحتري بدمشق ١٩٦١ ومهرجان أبي فراس الحمداني بحلب ١٩٦٤، ومهرجان الشاعر الباكستاني محمد إقبال بدمشق ١٩٦٤، ومهرجان الشريف الرضي باللاذقية ١٩٦٤، ومؤتمر الأدباء العرب الثامن بدمشق ١٩٧١، ومؤتمر الأدباء العرب بدمشق ١٩٧٩، ومؤتمر ابن عساكر ١٩٧٩.

حصل على درع نادي مكة الثقافي، وعلى ميداليتين برونزيتين من الاتحاد السوفييتي السابق وميداليتين برونزيتين إضافة إلى الوسام الذهبي للشعر من بلغاريا، وعلى الجائزة التقديرية من معهد التراث العلمي بحلب.

أصيب بمرض عضال تحمله بصبر جميل حتى وافته المنية في الأول من نيسان عام ١٩٩٢، وهو في الثالثة والستين من عمره، وفي قمة العطاء، وذروة التدفق الشعري.

آثاره الشعرية

أصدر الشاعر عبد الرحيم الحصني خمسة دواوين هي:

- أمواج ١٩٧٤.
- أناشيد متمردة ١٩٨١.

- ملحمة التلة البلغارية ١٩٨١.
- ألحان ثائرة ١٩٨٢.

كمـا أصـدرت له دار طلاس بدمشق ديواناً أخيراً ضم مختارات من شعره.

شعره

طـرق الـشاعر عبد الرحيم الحصني عـدة أغراض شعرية تنوعت مضموناتها بين الـشعر القومي والوطني والإنساني والعاطفي والغزلـي.. واحتل شعر المناسبات حيزاً واسعاً فـي دواويـنه، لأنه كان يلبي جميع الدعوات التـي توجه إليه للمشاركة في هذه المناسبات، فقـد نظـم عدة مطولات شعرية مثل: الجلاء والقدس، وأبطال حرب تشرين، ورثاء وصفي قرنفلـي، والـشهداء الذين سقطوا في معارك حزيران ١٩٦٧ والفدائيين وغيرها..

يقول في قصيدة (عيد الجلاء) مخاطباً سورية:

غنـيت عـيدَكِ حمـداً هانـئاً وهوىً
أسـخى مـن الغـيث إذ ينقى وينهمر
لـولا الجـلاءُ ومـا بعـد الجلاء لما
طـاب الـرحيقُ علـى مغناك والسمر
يـا موسـمَ النصرِ في نيسانَ موعدُهُ
دانـت بحـرمتك الأيـامُ والعُـصُرُ
لـم تـدرِ عـنكَ فرنسا ما حملتَ لها
حتـى رأت كـيف نجـمُ السعدِ ينحدر

ويقـول فـي قـصيدة (تحية لأبطال تـشرين) التي ألقاها في المهرجان الذي أقامه اتحاد الطلاب العالمي في كانون الثاني ١٩٧٤ على مدرّج جامعة دمشق:

تـشرينُ حطّـمْ جـدارَ الـصمتِ وارو لنا
مـن الملاحـم فـصلاً يُـسكر الحُقَـبَا
كـيف النـسورُ علـى أطـوادهم عبـروا
مـسرى النجوم؟ وكيف استصغروا السُّحُبا
وكـيف حـازوا إبـاء الجـو واتخـذوا
مـن غـرّةِ الـشمس ريشاً والهجير صبا

كمـا نظـم تحت عنوانٍ (ملاحم قلب) عدة مطولات لم تخنه القافية أو تستعص عليه فـي أي بـيت مـن أبـياتها، كما في قصيدته (الـشاعر الأمـير) التي ألقاها بمناسبة إزاحة الستار عن تمثال الشاعر أبي فراس الحمداني الـذي أقـيم في الحديقة العامة بحلب ١٩٦٣، وبلغت أبياتها أربعة وخمسين بيتاً، وتغنى فيها بماضـي الـشهباء وأمجادهـا، وذكريات حبه القديم فيها قائلاً:

يـا مـربعَ الخلدِ عهدُ الحبِ ما برحت
تنـساب أنـسامُهُ وثّابـةً فيـنا
هـنا قـضينا طفـولاتِ الهوى مَرَحاً
هـنا طلعـنا علـى الدنـيا حساسينا
يـا موعدَ الحب بالشهباءِ ما ابتسمتْ
خمائـلُ الحـبِ إلاّ عـن تـصابينا
لـي فـي (سـبيلك) أفياءٌ قضيت بها
أنـدى اللـبانات مـن أنـدى ليالينا..

ثـم يخاطب الشاعر الفارس أبا فراس الحمداني قائلاً:

أبـا فـراسٍ طويـنا البيدَ تحفـزنا
ذكـراك مـرتبعَ الـشهباءِ راجيـنا
أبـا فـراسٍ ومـا رفـت قوادمُـنا
إلاّ إلـيكَ ولا اهتـزت خوافيـنا

دللتُ مجدَ عصي الدمع في كبدي

وأيسرُ النبلِ تمجيدُ الوفيينا

وكما خص مدينة حلب ببعض مطولاته، كذلك خص مدينة حماه - جارة حمص - بقصيدتين تعدان من عيون شعره في المدن. حيا فيهما بطولاتها المعروفة، واستعاد ذكرياته الحميمة مع أدبائها وشعرائها البارزين أمثال بدر الدين الحامد (١٨٩٧ - ١٩٦١) وقدري العمر وسامي السراج قائلاً:

شمم يثور وعنفوانٌ يزأر

أحماةُ ذكركِ في الملاحم عنبرُ

وأنا، أنا من تعرفين قصائدي

أبداً لتمجيدِ البطولة تنذر

ما خنتُ عهدكِ يا حماةُ ولا انقضى

ولهي بمجدك والردى يتنمّر

يا سائلي عن ذكرياتي والصِّبا

دعني فمثلي بالصبابة يُعذر

واللهِ ما خطر القصيدُ بخاطري

إلاّ ذكرتُ (البدر) حين يزمجر

وذكرت (قدري) كيف كان يذود عن

شرف العروبةِ بالبيانِ ويثأر

أما قصيدته (قطاف الذكريات) التي ألقاها في مهرجان الشعر الخامس في مدينة اللاذقية عام ١٩٦٤، فقد دافع فيها عن حرمة اللغة العربية وقدسيتها لغة عدنان قائلاً:

وكم دخيلٍ على الفصحى تناولنا

ونحن نشفع آلاماً بغفران

دربٌ لعدنانَ مازلّتْ به قدمي

جاوزت دون هواه ألفَ ميدان

وإذا ما قصد اللاذقية فلا بد أن يمر بمدينة بانياس، ويعرج على (رأس النبع) ليشرب من مائه العذب النمير، ويقضي في مقصفه أمتع السهرات، وأبهج الليالي الملاح قائلاً:

يا بانياسُ لياليّ التي سلفتْ

على الضفافِ مدى حبي وإكرامي

يا سهرةً عند (رأس النبع) بتُّ بها

نزيل حبٍ وإحسانٍ وإنعامِ

يا جارةَ النبع يا وحيَ الشبابِ إذا

بكيت ما مرَّ من عمري وأعوامي

يا جارة النبع لا وجدي بمتئدٍ

على هواكِ ولا صبري بمقدام

يا بانياس أغاريدي لك انطلقت

ورفرفت بين أنسامٍ وأنسامِ

فإذا تركنا قصائده الطويلة التي قالها في المدن والمهرجانات، طالعتنا قصائده المؤثرة الحزينة التي رثى بها أصدقاءه الراحلين من أدباء وشعراء كسامي الكيالي (١٨٩٨ - ١٩٧٢) ونظير زيتون (١٨٩٦ - ١٩٦٧) ووصفي القرنفلي (١٩١١ - ١٩٧٢) الذي عاش معه وبادله الشعر، وكان - كما يقول - أنيسه ورفيقه في حياته المعذبة التي نغّصها المرض والألم والوجع، فخرجت قصيدته في رثائه التي بلغت أربعة وستين بيتاً، قطعة من كبده، ممتزجة بدمع الوفاء وعبرات المحبة:

ودعت يومَ رحلتَ السعدَ وانطفأت

عندي الشموعُ وجفّ اللحنُ والوترُ

أبكـــي وأبكـــي فـــلا الأيـــام دافعـــةٌ
مـــا نُحْـــت منـــه، ولا السلوانُ مقتدرُ
والذكـــرياتُ اللواتـــي كـــنَّ لـــي مُتعاً
لـــم يـــبقَ حولـــيَ مـــن آثارهـــا أثر

إلى أن يقول:

وصـــفي! واين العشياتُ التي سلفت؟
أبعـــدَ تلـــك الأمانـــي يُؤْلـــف العُمُرُ؟
كـــم صـــيحة لك في وجهِ الطغاة وكم
مـــادت عروشٌ بها واستسلمت سُرُرُ؟
مـــا بعت شعركَ في سوقِ النفاقِ ولا
ســـاومتَ إذ ســـاوم الجهّـــالُ واتجروا
(ســـرابك) العـــذبُ هـــام الظامئون به
فـــيمّموه، ولمـــا مـــسّهم ســـكروا
وأنـــــت فـــوق ذرا الآلام مؤتلـــقٌ
ومـــشعلُ النـــصرِ فـــي يمناك يستعر
أخـــا القـــصيدِ حملـــت الداء مرتضياً
وقلـــت للخـــوف، هذا دربك الوعر..!

ونقـــف أخيـــراً عـــند قصائده الغزلية لنشير إلى اقتضابها، وتقلص عدد أبياتها، لأنه لـــم يكن يقف فيها أمام الجماهير، بل أمام قلبه الخفاق، ينصت إلى وجيبه ودقاته، وهو يتأمل (ليلـــى) بنت السواحل التي فتنه جمالها الآسر، حـــين وقـــع بصره عليها وهي تسبح تارة في شط اللاذقية، وتستلقي على الرمال تارة أخرى قائلاً:

أتذكـــرين جمـــالَ البحـــرِ وا لهفـــي
لـــو كـــنتُ للـــشاطئ الفضي أنساما!
يـــوم ارتمـــيت بأحـــضانِ المياه وقد
تنفـــستْ أرجـــاً عـــذباً ونمـــناما
تألـــق الـــرملُ مـــزهواً بـــضيفتهِ
وراح يلـــثم كالمجـــنون أقـــداما
ومـــوجةٌ راحـــت الأخـــرى تـــسائلها
أخـــتاه، أيُّ صـــباحٍ نيّـــرٍ عامـــا؟
أرجعـــتِ لي الشعرَ يا (ليلى) وها أنذا
أذيـــب روحـــيَ للأجفـــانِ إكـــراما..

ويعتـــرف بأنـــه وإن شاب شعره فإن قلـــبه يظل شاباً يخفق بالحب، ويهيم كلما لاح له خيال الحسن:

لا تقولـــي عـــصف الـــشيبُ بـــه
لا يـــشيبُ الـــبدرُ إلاَّ فـــي الـــتمام
لـــم يـــزلْ قلبـــي فتـــياً فـــي الهـــوى
كلمـــا لاح خـــيال الحـــسن هـــام
بـــين جنبـــيَّ شـــبابٌ خالـــدٌ
مـــا أقـــام الحـــسنُ فـــي الكون ودام

امتاز شعر عبد الرحيم الحصني بطول الـــنفس، ووضـــوح المعاني، وفخامة الألفاظ، وجمـــال الديـــباجة، ومـــتانة التعبير، فهو يجد طـــريقه إلى القلب بيسر وسهولة، إذ لا تكلف فـــيه ولا صـــنعة، ولا غموض.. وهو صورة صادقة عن صفاء نفسه، ونقاء فكره، وصلابة عقيدته.

كـــان متمـــسكاً بقـــيم التراث العربي والأصالة العربية، وعمود الشعر الذي لم يتخل عنه حتى في قصائده الطويلة جداً..

لـــم تجـــرفه موجة التجديد في الشعر العربـــي المعاصر، رغم اندياحها، وانحياز عدد كبير من الشعراء إليها، مؤكداً ذلك بقوله:

ثـــار الغويـــون (تجديـــداً) وما أنسوا
مـــن بعـــد ثـــورتهم دنـــيا ولا ديـــنا



عرفت الأستاذ الدكتور نقولا زيادة منذ نصف قرن. كان ذلك في الجامعة الأميركية في بيروت - سنة ١٩٥٧ حضر مناقشة رسالتي لنيل شهادة الماجستير (M-A) ومنذ ذلك الحين كنت ألتقيه على غير موعد في مكتبه في دائرة التاريخ في الكولدج هول، أو في حرم الجامعة. ومنذ أكثر من عشرين سنة توطّدت علاقتي به فقد نشرتُ مقالاً مطوّلاً عنه في جريدة (النهار) بتاريخ ١٩٨٦/٤/٢٠ أبديتُ رأيي فيه كمؤرّخ وقلت إنه يمتاز عن سائر المؤرخين العرب المشارقة بالاهتمام ببلدان المغرب العربي زيارة وتأليفاً بالعربية وبالإنكليزية. وقلت كذلك أن كونه قد عاش في لبنان فقد استطاع أن يكشف نقاط الضعف ونقاط القوة في هذا البلد الصغيرة الذي تتعايش فيه ١٨ طائفة!

وسنة ١٩٩٢ صدر كتابه الضخم (أيّامي) في جزأين فقرأته كله وكتبت عنه ثلاثة مقالات نشرت في جريدة (النهار) بتاريخ ٢٩و ١٩٩٣/١/٣٠ و ١٩٩٣/٢/١ وكتبت كذلك عن بعض كتبه التي تلت.

وأثناء الحرب الأهلية كنت أزوره كما أنه كان يزورني لقرب منزلينا وكنا نتحدث في مواضيع شتّى تتناول التعليم الجامعي والأدب والشعر والفكر والدين والسياسة.. وكنا أحياناً نحضر مناسبات اجتماعية وندوات ومحاضرات ومؤتمرات معاً أو نشارك في بعض منها.

وكانت شلّتنا تتكون من خمسة أشخاص المرحومون الدكتور علي سعد (١٩١٨ - ١٩٩٩) والسفير الدكتور حليم أبو

عز الدين (١٩١٣ - ٢٠٠١) والأستاذ الدكتور نقولا زيادة (١٩٠٧ - ٢٠٠٦) والأستاذ عبد الله قبرصي أطال الله عمره، ومني.

فكنا نجتمع مداورة في منزل أحدنا، وكنا نذهب معاً لمعايدة بعض رجالات السياسة وبعض رجال الدين.

وغالباً ما كنا نذهب إلى بشمزين ودير البلمند وطرابلس شمالاً، وصيدا لزيارة المغفور له المطران بولس الخوري (١٨٩٦ - ١٩٩٥) وحتى صور جنوباً، وإلى بعض مدن الجبل وكذلك إلى دمشق مسقط رأسه.

ثم أخذت (الشلة) تنمو وتتكاثر. فهو كان يدعو إلى شقته، الكائنة في الطابق التاسع شرقاً من الدار الخضراء، بعض الأساتذة والأدباء والفنانين والمؤرخين ورجال الفكر والإعلام، وخاصة من الجنس اللطيف، إلى لقاء فيه شراب وطعام وأحاديث شتّى يروي لنا عن ذكرياته وتجاربه وعن أشياء كان شاهد عيان عليها أوَ ليس هو (شاهد على العصر)! لم يكن أحد منا يعرفها، لفارق السن بيننا وبينه، كنا نستمتع بها رغم أننا كنا قد سمعنا بعضها مرّات عدّة! وأنا كنت من المحظيين القلائل الذين كان يُسمح لهم بتقديم الوسكي والمرطبات للضيوف، وكان أحياناً يدعوني للمشاركة في الاحتفاء بمجيء أحد معارفه من إحدى الدول العربية، كان يتصل بي هاتفياً ويقول: هل عندك شيء؟ تعال!.

كنت أراهن على أنه سيعيش حتى يدرك المئة. وذات يوم كنت أزوره وكان الطبيب الذي يُشرف عليه قد جاء لإجراء الفحص الروتيني له. جلست على الشُرفة أنتظر حتى يفرغ الطبيب من إجراء الفحص. وبعد أن انتهى سألته: كيف صحته؟ قال: مثل الحديد! قلت لطبيب تعال نكتب (تعهداً) يُفيد بأنه سيعيش حتى المئة، أنت توقعه كطبيب وأنا كشاهد! قال لي اكتب. كتبت وإذ بنقولا يأتي إلينا ويسألني ماذا أفعل؟ أجبته: اتفقنا الطبيب وأنا على أن نضع هذه (الإفادة). أخذها وقرأها وقال: مَن قال لكما إني سأعيش مئة سنة فقط؟! كيف تتدخلان بمشيئة الخالق! عندها أضفت على الورقة جملة تقول: وما زاد عن ذلك (أي عن المئة) فمن فضل ربّي!

عاش نقولا ٩٩ سنة ولكنه عاشها بكل نشاط وشغف وظل يكتب حتى آخر أيام حياته. وكان حتى الأمس القريب يحدثني عن مشاريع جديدة ينوي تحقيقها! فقد عرف مُرّ الحياة وحلوها.

آخر مرّة زرته كنت بصحبة الدكتور أنيس صايغ وكان ذلك قبل وفاته بأيام قليلة.

سألني كعادته ماذا أكتب. ولكننا أحسسنا بأنه لم يكن كما عهدناه. تلك الزيارة تركت في نفسينا ألماً. أدركنا أنّنا جئنا لوداعه الوداع الأخير.

كنا نتهيّأ للاحتفال ببلوغه المئة في ٢٠٠٦/١٢/٢ كما كنّا نقدّر. هذه هو الإنسان الذي يقدّر ما شاء له أن يقدّر ولكنه لا يقدّر أن للقدر فيه مشيئة لا يقدرها.

نقولا زيادة ظاهرة نادراً ما تتكرر.

صدق الذي قال: الناس موتى وأهل العلم أحياء؛ نقولا زيادة واحد من هؤلاء....




الرجلُ البحّار..

شعر الدكتورة: سعاد الصباح

يُذكِّرني صوتُك
بصوتِ المطر..
وعيناكَ الرَّماديتان
بسماءِ سبتمبر
وأحزانُكَ..
بأحزانِ الطيورِ الذاهبةِ إلى المنفى
يُذكِّرني وجهُك
ببراري طفولتي
ورائحتُك
برائحةِ البُنِّ في كافيتيريات روما..
ماذا أستطيعُ أنْ أفعلَ من أجْلِك؟
أيُّها الرجلُ
الذي شقَّقَ شفتيهِ ملحُ البحر..

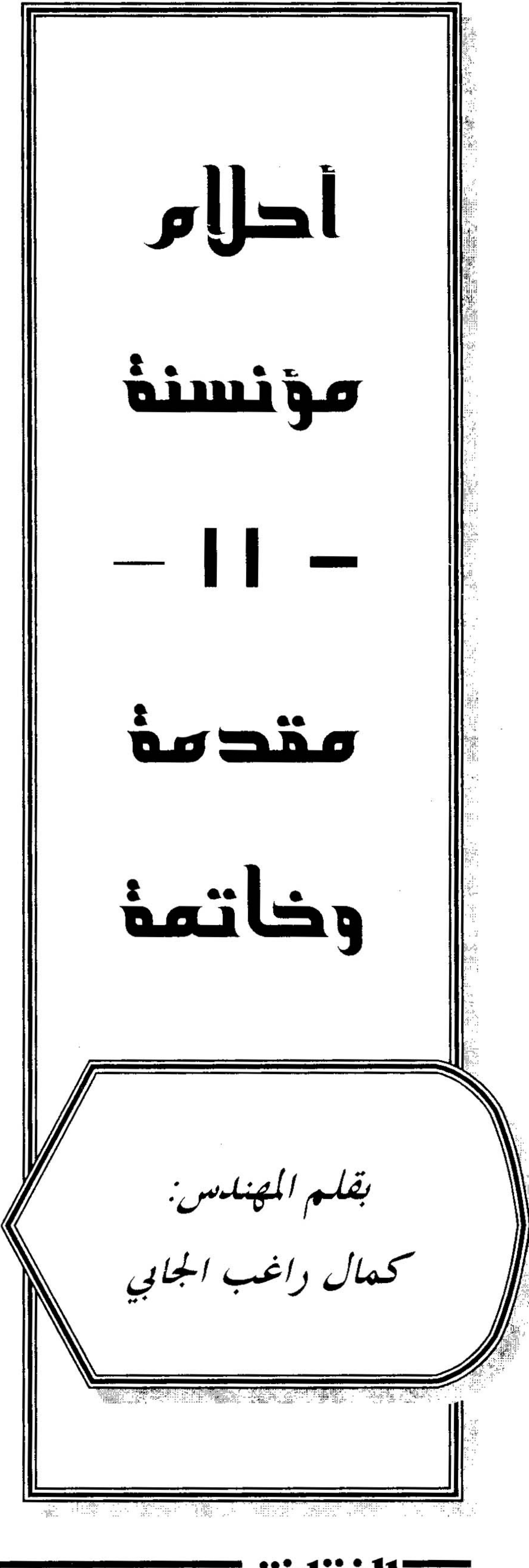






وطاردتْهُ سفنُ القراصنة
وتناثَرَ جسدُهُ على كلِّ القارّات
أريدُ أنْ أدخُل
في قميصِكَ المفتوح
وجُرْحِكَ المفتوح
وأكونَ جزءاً
من قَلَقِك..
ودَوَارِكَ..
ومَوْتِكَ الجميل
أريدُ أن أصعدَ إلى ظَهر سفينَتِك
التي لا تعترف بالمرافي..
ولا تعترفُ بالجُزُر..
ولا ترسو في أيِّ مكان
أريدُ أن أخَبِّئكَ في صدري
عندما تشتدُّ الريح
وتعصفُ العاصفة
فإمّا أن أنجُوَ معك..
وإما أنْ أغرَقَ معك..



أحلام مؤنسنة - ١١ - مقدمة وخاتمة

بقلم المهندس: كمال راغب الجابي

ما قدمته في الأحاديث العشرة السابقة التي قامت مجلة (الثقافة) الغراء بنشرها مشكورة تحت عنوان (أحلام مؤنسنة) هو شكل من أشكال أحاديث الروح التي لها منزلة عند بعض الناس، وأنا منهم، تعلو على كل ما عداها. بعدِّها الرفيقة خلال مشوار الحياة والمشجعة على تحمل مشاق رحلتها الطويلة. وبوصفها المطلقة للفكر لامتطاء صهوات الخيال عبر نسمات الإلهام العليلة.. وهي أحاديث متنوعة ومتفرعة استغرقت سنوات طويلة من العمر وما زالت. وجلسات عديدةً من الحوار لم تتوقف والكثير من الأخذ والرد والجذب والشد إلى أن تبلورت بدايةً على شكل قصيدة زجلية باللهجة العامية المصرية تحت عنوان (الوصايا العشر) تخيلت فيها وصايا عملية منفذة للوصايا النظرية التي لم يؤد إدراجها في التعاليم المقدسة لأول رسالات السماء، على وضعها الحالي، إلى تخفيف مآسي البشر وتجفيف ينابيع بؤسهم وبخاصة وبعد أن قام أسلاف أتباع هذه الرسالة وأخلافهم معاً بتحريف تعاليمها وتجييرها لمصلحتهم. وبعد أن سار الخبثاء من أتباع الرسالات اللاحقة على هديهم فضاعفوا هذه المآس وعمقوا تلك الينابيع.. وعندما وصلت هذه القصيدة إلى شكلها النهائي عمدت إلى شرح كل من الوصايا التي وردت فيها بإيجاز يتماشى مع ما يمكن نشره حولها. وحاولت أن أمد كلا من مقاطعها بأفكار محددة. لأن أسلوب التحديد في تصور المؤنسنين من البشر هو الأسلوب المفيد إذ لا يكفي التحليل والتأويل، والتهويم والتحويم، ووضع الأصابع على الجروح، لالتئامها وشفائها، بل يتطلب الأمر إسهام من يتصدى لهذه المواضيع تقديم مرئياته حول طرق العلاج الملائمة لها وأساليب الإبرام اللازمة بشأنها..

ولا بد هنا من ذكر أن الذي حفزني على كتابة هذه القصيدة الزجلية باللهجة المصرية العامية صديق قريب إلى نفسي حبيب إلى قلبي جمعتني وإياه ضرورة السعي وراء لقمة العيش بالعمل معاً كخبيرين في إحدى

(شـركات العمـل العربـي المشترك) لعدد من الـسنوات عانيـنا خلالها من جميع التناقضات التـي يعاني منها المواطنون المخلصون لفكرة التمهـيد للتوحـيد والتي أقيمت هذه الشركات على أساسه. ولعل من أهم هذه التناقضات عدم وجـود تـصور وطني شامل ، ورؤى إنسانية رحمانـية، وخطـط علمية رشيدة تساعد على التنويـر والتطوير.. إضافة إلى تغليب التصور القطري الضيق والمكاسب الخاصة على التطلع القومي المنفتح والمنافع العامة في الممارسات القـيادية والإداريـة لهذه الشركة البارعة في تغليف هذه الممارسات بالشكلي والادعائي من الإجـراءات الإعلامـية والإيهامـية والمنافية لواقع الحال..

وتعـود هـذه التناقـضات أساساً إلى أساسـا إلـى أسباب عديدة أهمها عدم الإيمان بفكـرة التقارب أصلاً للتفاوت في الثروات بين الـدول المساهمة في هذا العمل وما يتبعه من تباين في التوجهات وتباعد في المنطلقات وما ينبـثق عـنها مـن تنافـر فـي المحلـلات والمحرمات..

ولقد دفعتنا هذه المعاناة لأن نتبادل في بعـض الأحـيان ما يعترينا من آلام، وصورت بموضـوعية جزءاً مما نرنو إليه من أحلام بدأ كتابـتها ذلـك الصديق، والذي هو من شعراء الـزجل المعروفين في بلده، بلهجته المصرية المحبـبة وبمواضـيع مختلفة وقمت بمجاراته بالكتابة بها نظراً لأنني أحمل لها كماً كبيراً من الاسـتلطاف لجرسـها الموسـيقي، وانطلاقة تعابيـرها، ومرح مفرداتها وجمالية تراكيبها.. يعود جزء كبير منه إلى أنني أقمت فترة طويلة وجمـيلة مـن حياتي في مصر خلال دراستي الجامعـية الأولـى فيها، امتزجت خلالها بهذه اللهجـة وبأصحابها. والتحمت أثناءها بعلومها وآدابهـا وفنونها. وتمايلت طرباً مع موسيقية أدائها وخفة دم من يؤديها بين أرجائها.

هـذا من ناحية الشكل، وأما من ناحية المـضمون فقد يعجـب البعض عند قراءته للقـصيدة التـي تلـي هذا التمهيد لجوئي إلى (شبح الحلم) لحل المشاكل التي أحسست بأنها العائـق بـين البشر وبين إنسانيتهم المفقودة بـشكل مـشابه للأسـاطير المتعلقة بـ (مارد القمم) أو (خاتم سليمان) وبطريقة المعجزة في زمـن اختفت فيه المعجزات. ولعل تخيلي لهذا الأسلوب من الخلاص عائد إلى سببين. أولهما حجـم الألـم الـذي ينتابني كلما ارتطمت بما يعترض إمكانيات التقارب الروحي بين الكائنات البـشرية وثانيهما مقدار الأمل الذي يساورني في الانتصار على الأهواء المعادية للمحاولات الوجدانـية والعقلانـية الهادفة لوضع الحلول المناسـبة للتغلب على مظاهر الظلم الاجتماعي المخـتلفة وقد تكون رغبتي في الإسراع بهذا التبديل ودفع وتيرته وتعجيل مسيرته هي وراء اقتراحـي مـا اقترحت لكن هذه الرغبة وتلك الأسـباب لا تعنـي إطلاقاً إنكاري لقدرة العقل البـشري والإرادة البـشرية على الحلول محلٍ (شـبح الحلم) في تنفيذ ما نتصوره الآن حلماً من الأحلام..

ولقـد كـان من المنطقي أن أورد هذا التمهـيد والقـصيدة التي ينتهي بها قبل نشر الحلقـات العشر التي يعود اليهما ويعودان إليه لكـن خشيتي من عدم تقبل وفهم الشكل الذي قدمت القصيدة به جعلني أوخره لأجعله تقديما وخاتمة في آن معاً بعد أن أكون قد شرحت ما قصدت في مقاطعها بالإضافة إلى أن تأثيرها قد يكـون أكبـر في هذه الحالة وفي كل الأحوال فالقـصيدة هـي كما يلي والحلقات العشر هي فـيما سـبق نـشره في أعداد الثقافة فقد يجد الـبعض أنـه يستحسن العودة إليها بعد قراءة هذه القصيدة.

سباعية

الوصايا العشر

باحلم زي كل الناس بإني كنت بيوم
أرفان من الدنيا ومش عارف فيها أعوم
طلعت الجبل في الليل شايل عضهري هموم
ولما وصلت لفوق بين السما والغيـوم
فراس الجبل هدّيت والفكر فيه مرسوم
سؤال وألف جواب زي القمر والنجوم
قعدت أستريّح رحت في سابع نوم

* * *

بصّيت لقيت قصادي شبح كبير ومخيف
النور بيلعلع فيه زى الشمس بالصيف
قرَّب عليَّ وقال ما تخافش أنا مش طيف
أنا هنا مخصوص أروّق ليك الكيف
اللي عاوزه حاجبيه بالذوق أو بالسيف
ليك عشر مطاليب أأمر ما تكونش عفيف
حانفذّ طلباتك بقدرة خبير ولطيف

* * *

ارتعشت من جوّه زي اللي حصلّي زمان
لما كانت لسَّه صغير وبابوس بنت الجيران
وأبوها قاعد برّه ومدّ يلنا ضهره أمان
وأخوها قدَّامه ومعاهم أمها كمان
لو بصُّوا وراهم حيشقلبولي كيان
قعدت أبصّ وأبوس وشفايفي والأسنان
بيتكتكوا تكاتيك يا خسارة الجدعان

* * *

قرَّب كمان وقال ما تخافش منِّي أمَّال
أنا جاي أنا جيك وأريَّح ليك البال
اللي شاغله في التفكير في الدنيا والأحوال
شوف إنت عاوز إيه تلاقيه حصل في الحال
لو عزت كم نجمة وحتّى القمر حتنال
أو عزت موج البحر يبقى في إيدك مال
مالكش غير عشرة أنا ليها مرسال

* * *

إحترت أطلب إيه جاتني مليون فكرة
صحَّة ومعاها فلوس وحريم من غير ضرَّة
وشباب وسلطان ومجد وعز وكمان قوَّة
وراحة البال والكيف دول يبقوا تمام عشرة
وعطول دوّىّ صوت خاطبني في حسره
طول عمرك عايز تغيير وبتنادي بالثورة
شوف لك حاجات للناس تبقى عطول عبرة

* * *

تشجَّعت ولسَّه خايف من عنيه اللي باصَّالي
حاقوله إيه وازاي على كل اللي في بالي
تنهّدت وخدت نفس من بعد ما جرالي
ونطقت وقلتلو خود عندك آمالي
مش عاوز حاجة ليَ ولأهلي وعيالي
عاوز لكل الناس دول مالي وراسمالي
سجّل عندك على طول طلباتي كالتالي

* ١ *

شيل من صدور الناس كوابيس أشكال وألوان
اللي ورتوها من جيل لجيلٍ وزادوا عليها كمان
وقطّع منها الفروع وخلّي الجدر عريان
عشان هيَّ السبب في محنة الإنسان
القشور بقت الأصل واللب اندفن من زمان
الحروب والخراب منها في كل أوان ومكان
العاقل يفكر ويقول ياريت اللي جرى ماكان

* ٢ *

وحطّ في قلوب الناس مطرحها معنى جميل
يفضل مشعلل فيها ويكون للحق دليل
وخليه دايماً صاحي وحتى في عزّ الليل
ينوَّر طريق الخير ويولع ليه قناديل
ويضلم سكك الشر ويخلي ماشيها ذليل
وسمِّيه وجدان أو ضمير أو أي إسم بديل
يعكس صورة الرب اللي مالوش زي ومثيل

* ٣ *

بطّل كل سلاح بيضرب وهو بعيد
النار والبارود إمحيها محى اكيد
والذرَّة خليها للسلم حاجة تفيد
وعطّل تفجيرها للحرب وللحب منه قيد
ورجَّع لينا السيف واعمل عليه تقييد
ما نستعملوش إلا في القوي والشديد
ونخلص بقا من القلق والخوف والتهديد

* ٤ *

إلغي المفاهيم القديمة بتاريخ البشريَّة
اللي معشعشة في القلب من أولى ابتدائيَّة
وامحيها من الأذهان بلمسة سحريَّة
ماكانش في أوطان وحروب وشعوبيَّة
وكل أمم زمان خليها بلا هويَّة
عشان كانت بتتناقر بحقد وعصبيَّة
وعشان مانبقاش زيها علمنا الانسانيَّة

* ٥ *

وامحي كمان وبسرعة مفاهيم الجغرافيا
اللي دايما وراها حكومات زي المافيا
خلقت أسوار وحدود وفرضتها بالعافية
واللي يطالب بالحق يخشوله عطول قافية
شعوب عايشة مرتاحة وشعوب ماشية حافية
شيل كل الحواجز والدنيا حتكون كافية
للناس كل الناس تعيش وهي صافية

* ٦ *

واعمل لغة واحدة وجديدة لكل الناس
علشان يتفاهموا بالبق وبالإحساس
اللسان مرسال القلب والكلمة هي الأساس
وكتر معاني الحب فيها وخلي لها باس
يفرض علينا الرأي كل ما يحصل ماس
والكلمة الحلوة تكون دايماً هي الراس
نشربها في الميَّه من كاس ومن غير كاس
* ٧ *
وحدِّد ربح البياعيَّن بالميِّة عشرة وبس
ولو زاد تعاملهم لازم عن كده يخس
ولو كان في تصنيع وخلق حاجة تتحس
زيد الربح شويَّه علشان تشرح النفس
واللي حيتلاعب إدِّيله وبأعلى حس
وعلى عمود للتشهير خليه فترة يعس
علشان يكون دايماً لزمايله أحسن درس
* ٨ *
والعدل خلِّيه للناس أحلى وأغلى وصيَّة
الكتب السماوية كلها عملتولينا هديَّة
وخلتو أساس الملك وركن الديموقراطيَّة
والرسول الكريم قال من ألف وربعميَّة
عدل ساعة واحدة ولا عبادة أبديَّة
والخليفة العادل ربطو بالحياة وبالحريَّة
وزان بميزان واحد ومنع الإزدواجيَّة
* ٩ *
والعلم وأفراد عيلته سلِّمهم كل المقدَّرات
أنشرهم بالشرق والجنوب بقوَّة مع ثبات
وادِّي الفرص للكل رجَّالة أو ستات
خليهم يمارسوا تعاليمو على مختلف المستويات
ويوجهوها لفعل الخير بكل الاتجاهات
واللي حايستخدمها للشر ضد باقي الفئات
عاملو زي البيَّاعين في البند اللي فات
* ١٠ *
وشوف لنا بالارتباط مفهوم واضح ومفيد
خفف من الجواز القريب وكتر من الجواز البعيد
وما تعملش عالتقارب موانع ولا عالتفاهم تقييد
ولا بالإمتزاج تمييز ولا في الإختلاط تشديد
خلي الشعوب تتحد وتكون شعب جديد
الحب يجري بعروقه في كل شريان ووريد
عشان التعصُّب يتخنق وهو لسَّه وليد
* ١١ *
وواحدة فوق العشرة عايزها مخصوص علشاني
تدِّيني عشر سنين في العالم اللي جايَّة تاني
بعد التغيير ما يحصل وتتحقِّق فيه الأماني
أعيش الدنيا الجديدة وألاقي فيها مكاني
وأشوف إن كنت غلطان وباخرَّف من أحزاني
والا دي الحقيقة الضايعة واللي تايه عنها زماني
ما تظلمنيش وحياتك وتقول ده أصلو أناني
* * *
بصِّلي الشبح بحب وبنظرات وديَّة
ولما خلَّصت كلامي انقلبت لناريَّة
وابتدا يدِّي أوامره لمخاليق شبحيَّة
عشان ينفذوا الوصايا وصية ورا وصيَّة
وكان عمَّال يقوللوهم بأصوات رعديَّة
ما تدُّوش اسثنا لحد عشان تكسبوا القضيَّة
واضربوا بإيدين من حديد عالباغي والبغيَّة
* * *
قالولو نعرفهم إزَّاي إدِّينا ليهم أمارة
قالُّوهم كل اللي بيعتبر نفسو مختار أو مختارة
واللي بينادي بأرض الميعاد وعاملها ليه ستارة
وكل اللي بيمارس الأذى بالصناعة والجشع بالتجارة
وكل مين فاتح بقُّو للآخر وللغير بالقطَّارة
وكل مين الشر مملكتو والحقد ليه إمارة
وكل مين بيساعدهم وبيمدهم بالعصارة
* * *
جاتني خبطة عالراس صحتني من الأحلام
فتَّحت عيني لقيت اثنين زيِّ الأصنام
واحد منخارو معكوف وشكلو مش تمام
والثاني ملظلظ ومنفوخ وبيسموه الانكل سام
بايديهم عصي وسلاح وبعينهم الإنتقام
بتحلم وانت نايم !.. تعال معانا أوام
حنعلمك عندنا.. إزَّاي تبطَّل تنام




إلى أين يسافر البحر..

شعر: الدكتور عمر النص

دمشق

سـألت دمـشق والـراياتُ قـد تعـبَتْ مـن الـسفرِ
ألمْ تَعْـبر مـع الـتاريخ مـن حجـرٍ إلى حجـرِ
ألم نـشهدْ سـرايا الفـتح تهـتك ظلمـة العُـصُرِ
فخلـتُ مـآذنَ الأمـويّ تدعونـي مـن الفجـرِ

في المتحف

مـن أيـن أتـىَ هـذا الـصوتُ
إنـي لأحـسّ علـى الحجـرِ
شـيئاً يمـشي.. أهـو المـوتُ؟

الفجر

علـى شُـرَفِ المـناراتِ
تـسيلُ غدائـرُ الفجـرِ
سـواقيَ مـن نـدىً يكـبرِ
ونهـراً مـن فراشـاتِ

السيل

أهـيَ المديـنة لم تجـدْ سـدّاً يقـيها
الـسيلُ أطـبق فـوقها فتهافـتتْ
حتـى المقابـر قفـرتْ مـن سـاكنيها







غرور

أحلـــمُ أنّ الأرضَ لم تُـــوجَدِ
أنّ الدنـــي تـــولد مـــن راحـــتي
وأنـــني أحـــيا بـــلا سـيِّدِ
وأنـــني أقـــدم مـــن كـــلّ شـــي..

أنت النساء..

عـــرفت النســاءَ.. وكـــان لهـــن ألـــوف الوجـــوه
وحـــين عـــرفتكِ.. صـــرتِ جميـــع النســاء
وأصـــبح وجهـــكِ كـــلّ الوجـــوه..

الحبّ مرة أخرى

وفجـــأة.. جـــاء الهـــوى مُـــستغفرا
أوّاه لـــو يعلـــم كـــم تأخّـــرا

كآبة

شـــآت الدفاتـــرُ للهـــوى يُخْلـــي
فانهـــدّ صـــوتي قـــبل أن أملـــي
وكـــأنّ ظلّـــكِ فـــرّ مـــن ظلّـــي
قولـــي: أنـــت حـــزينة مثلـــي..

الكتب

لا. لـــن أصـــدّقَ هـــذه الكُتُـــبا
إنّـــي رأيـــت حـــروفَها هـــرِمَتْ
فعلمـــت أنّ النـــبعَ قـــد نَـــضَبا

الرحيل

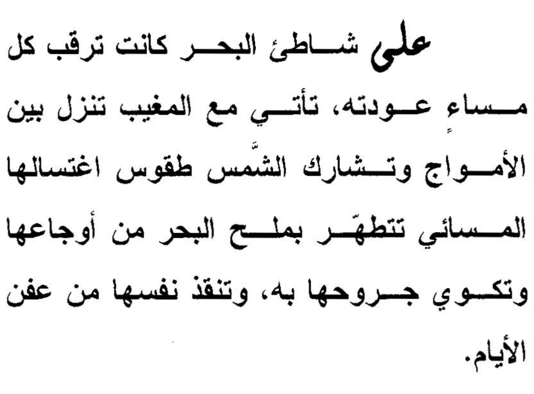
حملـــتُ حقـــائِبي والأمـــسُ يلـــهثُ في متاهاتـــي
تـــركتُ رســـالة في الـــريح تحكـــي عـــن ضلالاتي
وقلـــت لعلمـــا الأيـــام قـــد غفـــرتْ حماقاتـــي
فهـــل مـــن مـــرفأٍ في الأرضِ ألقـــي فـــيه مرســـاتي؟




قصة

قصة عشق بحري

بقلم:
أ. عبير كامل إسماعيل



على شاطئ البحر كانت ترقب كل مساءٍ عودته، تأتي مع المغيب تنزل بين الأمواج وتشارك الشَّمس طقوس اغتسالها المسائي تتطهّر بملح البحر من أوجاعها وتكوي جروحها به، وتنقذ نفسها من عفن الأيام.

عشر سنواتٍ مضت على غيابه، لم تتخلَّف يوماً عن هذه الصَّلاة.

في ليلةٍ داكنة قالوا لها أنَّه هرب على ظهر سفينةٍ مغادرة، رفع أشرعة قلبه وسافر دون كلمة وداع، ترك لها قصاصة ورقٍ كتب عليها: "انتظريني، أو لا تنتظريني حتى لا يصدأ قلبك".

اختلفت الأقاويل حول أسباب هروبه المفاجئ، هناك من قال أنَّه ملَّ بؤسه وشقاءه فرمى نفسه في أحضان البحر باحثاً عن لحظة فرح في أصداف الأيام القادمة، وهناك من قال أنه هرب من ملاحقةٍ لاهثةٍ للقبض على أفكاره، ومن مخبرين دسّوا الخوف بين دقائقه، وآخرون أكدوا أنَّه كشف عصابةً منظَّمةً لسرقة الآثار وتهريبها في السُّفن المسافرة.

وحدها لم تسأل عن سبب سفره فالنتيجة واحدةٌ لقلبها، ووحدها أحسَّت بالفَقْد وبسخونة جمر الرّمال الذي تركه على الشّاطئ لتكتوي به قدماها التائهتان.

كــلّ ما قيل كان ممكناً، فكلّ احتمالات الوجع جزءٌ من نفسه.

كــان عشقه لها جزءاً من عشقٍ أزليٍّ للموجة وحبّة الرمل ورائحة اليود البحريّ، ما ناداهــا يــوماً إلاّ (بالحورية الجميلة) وما ظنّ يــوماً إلاّ أنهــا خُلِقَــتْ مــن زبد الموج، كما أفروديت.

تذكّــرت كــيف كانــا يمــشيان فــي أمــاسٍ كثيرةٍ على الشّاطئ بعد أن يلقي نفسه المرهقة بين ذراعَي موجةٍ عاليةٍ ثم يخرج وقد تعانقــت علــى جفــونه قطراتُ الماء بالدّمع فيصيح:

أتعلمين أيّتها الحوريّة كيف تشكّل البحر؟

وتنظر مستفهمةً؟ فيردّ دون أن ينتظر إجابةً:

- مــن عــرق الــنّاس البسطاء ودموعهم والدّليل طعم الملوحة والألم فيه.

علــى يديــه تعلّمت أبجدية الحياة من هذا الأوقيانوس، رأت حياةً أخرى على اليابسة تشبه ما يجري في الأعماق، رأت القرش يأكل السّمك الصغير، والطفيليات تتغذّى على موائد الحيــتان الكبيــرة، والحبّار يملأ الدنيا سواداً لينفذ بجلده، رأت كيف تُصادُ الأسماكُ المهمّشة بالمئات وتُعَلَّب لتمتّعَ الآخرين، أما حين تخاف كانــت تهربُ إلى نوارس عينيه باحثةً عن برّ الأمان.

عــادت تنظر إلى البعيد، تحاولُ نسيان كل شيء، وتصيح من أعماق روحها:

-لماذا كلّ الذين يرحلون يغافلوننا ويندسُّون فــي ذكــرياتِنا وأحلامِنا مغلّفين بهالةٍ من الحنــين والوجد؟ لماذا لا يأخذون الأحلام والذّكــريات معهــم؟ لماذا يحضرون بقوة متحدّين الزّمن وبُعْدَ الوقت؟

كانــت عقارب الانتظار تلسع قلبها كلّ لحظــةٍ وهي تنظر إلى الأفق باحثة عن صليب البــشارة يلوح على شراع سفينةٍ عائدة، عن بطــل قصة يرويها بحّارٌ لقيَهُ في أحد الموانئ البعــيدة، وحــين يلحّ بها اليأس تثور، تغضب وتــصرخ في وجه البحر الصّامت إلاّ من هديرٍ أبديٍّ لا ينبئ عن خبر.

- أيُّها البحر، لماذا تسرق منّا الفرح وتترك لــنا مــناديل مــبلّلةً بالدّمعِ والقهر؟ أيّها البحر كُنْ لنا ولا تكن علينا، أعدْ لي قمر وجهه ليعودَ المدُّ والجزر لأمواج قلبي.

وحــين لا يــردُّ علــيها إلاّ بأمــواجه الرّتيبةِ تعود لذلك الهارب المسافر فتناجيه:

-لماذا تبحر بعيداً آخذاً معك الجمالَ والحبَّ، ولمــن تتــرك الحورية التي عشقت، أيّها المهاجر ما جاء بعد هربك إلاّ سفنٌ محمّلةٌ بالكُــرهِ والــسّلاحِ والــنّفايات القذرة، أيّها الهــارب إذا صدئ قلب حوريّتك ستتوه في البحار ولن تغنيكَ موانئ الدنيا.

كانت كل أدعيتها تذهب أدراج الرّياح، فتلقي مرساتها في قَعْر الألم وتستسلم للحزنِ، لكنها لا تكفُّ عن التحديق في الأفق ولا عن استجداء صوت بعيد من صدفة تلصقُها على أذنها.

نسي الناس جميعا ذلك البحار وما نسيت، سخر الجميع من أملٍ دفنوه وبقي حيّاً نابضاً في رأسها.

استسلم البعض لسطوة الحيتان، وانتسب آخرون للطفيليات وبقيت هي مع الأسماك النّبيلة تصارع التيّار في الأنهار باحثةً عن مسقط رأس الحريّة في بحر الحياة،... لم تهربْ، ولم تعد تتسوّلُ حفنةً من الذكريات في مخيّلتها، بل صارت تخاف عودته، فالعائدون لا يرجعون كما ذهبوا، يأتون دائماً وقد علاهم غبار الحياة وأخفى معظم معالمهم القديمة، ويغدو احتمال تقبّل العائد الجديد بكل تغيّراته واهياً.

سنواتٌ أخرى مضت قبل أن تحسّ بالمدّ والجزر يصخبان في قلبها.

ركضت إلى الشّاطئ باحثةً عن قمره، كان ربّاناً مفتول الزّندين أسمر كما عَهِدَتْهُ، لكنَّ السُّفن كانت غريبةً، أشرعتُها ملوّثةٌ بالدّم، ومجاديفها من عظام النّاس الذين قُتلوا في موانئ العالم الطّيب، نظرتْ إليه مستفسرةً خائفةً، اندفعَ إليها، عانقَها، كانتْ متصلّبة كلوحٍ من الجليد، غامَتْ نظرةٌ خائبة الأملِ في عينيه. بادرَها:

- ألم تشتاقي إليَّ؟ ألم تنتظريني؟

ردّت بصوتٍ خافتٍ:

- انتظرتُكَ وحدَكَ!! فمن هؤلاء؟!

أجابها بفخرٍ:

- هؤلاء البحّارة سيحمونني، لن أهرب ثانيةً، سنعيش كما نريد، سينشرون أشرعة السَّلام على حياتنا.

دفعتهُ بقوّةٍ، لم تستطعْ أنْ تلتفت إلى الواقفين وراءَها لتقول لهم بفرحٍ وثقة:

- ألم أقل لكم أنّه عائد؟

اقتربَتْ منه، همستْ في أذنه:

- أتعلم كيف تشكّلت البحار؟

فاجأه السؤال، رانَتْ على شفتيه ابتسامة حنينٍ مُرٍّ، هزَّ رأسَهُ بالإيجاب، ودون أن تنتظر جواباً أكملَتْ:

- من عرق البُسَطاء! أتذكر؟! أتعلم أيُّها البحّار ماذا كانوا يفعلون حتّى سال كلّ هذا العرق من أجسادهم؟

نظر مستفهماً، فردَّتْ وهي تشيرُ إلى الجبال:

- كانوا ينشئون جبالاً كهذه من حُطام السُّفُنِ المحمَّلةِ بالهاربين العائدين بصحبة الغرباء.




غانية وشال..

شعر : جابر خير بك

علـــى الكـــتفين مـــنديلٌ وشـــالُ
وفـــوق الخـــدِّ تفّـــاحٌ وخـــالُ
وحـــول الجـــيد أقـــراطٌ تـــدلّتْ
تَلاعـــبَ في تأرجحهـــا الجمـــال
ولـــيلُ جـــدائلٍ أرخـــى ســـدولاً
ومـــن حَلَـــكِ الدجـــى طلَـــعَ الهـــلال
ودقّـــتْ بـــاب صـــومعتي وحـــيّتْ
بلطـــفٍ فـــاق مـــا سمـــح المجـــالُ
وقالـــت قـــد أتـــيتُ وفـــوق ثغـــري
ســـؤالٌ راح يتـــبعه ســـؤالُ
لِمـــنْ كُتِـــبَتْ قـــصائدُك اليتامـــى
وهـــلْ للحـــسنِ شـــعرُك والمقـــالُ
وهـــل تحلـــو بعينـــيك العـــذارى
وتُغـــريك المواســـمُ والغـــلالُ
إذا وقفـــتْ بـــبابك فاتـــناتٌ
ملكـــن مـــن الهـــوى مـــا لا يُطـــالُ







فـــيحملك الحـــنين إلى شـــبابٍ
طـــواه العمـــرُ وابـــتعدَ النـــزالُ
وفـــاض حديـــثُها ســـحراً وعطـــراً
علـــى سمعـــي تـــسابقه النـــبال
فهـــبَّ مـــن الـــرقادِ فـــؤادُ صـــبٍّ
وأيقـــظ ريـــشتي الحـــسنُ الـــزلالُ
وكـــنتُ كـــسرتُ مـــن زمـــنٍ طـــويلٍ
رماحـــي وانتهـــى عـــندي النـــضال
فكـــيف أقـــول فـــيها الـــيومَ شـــعراً
وقبلـــي تـــاه مَـــنْ نظمـــوا وقالـــوا
وماتـــوا في الهـــوى حـــزناً وقهـــراً
وغـــيرَ الـــوعدِ مـــا قطفـــوا ونالـــوا
ورغـــم تعففـــي وسمـــو نفـــسي
صـــبوتُ بهـــا وتـــيمني الـــدلالُ
وأشـــعل خافقـــي صـــدرٌ وخـــصرٌ
ونَهـــدُ شـــامخٌ وغِـــوىً ومـــالُ
وطـــرفٌ ســـاحرٌ وغـــرورُ ثغـــرٍ
بلؤلـــؤه. وأهـــدابٌ طـــوال
فـــرحتُ بحـــسنِها أُدلـــي بدلـــوي
ويـــدفعني الـــتفاؤلُ والخـــيال

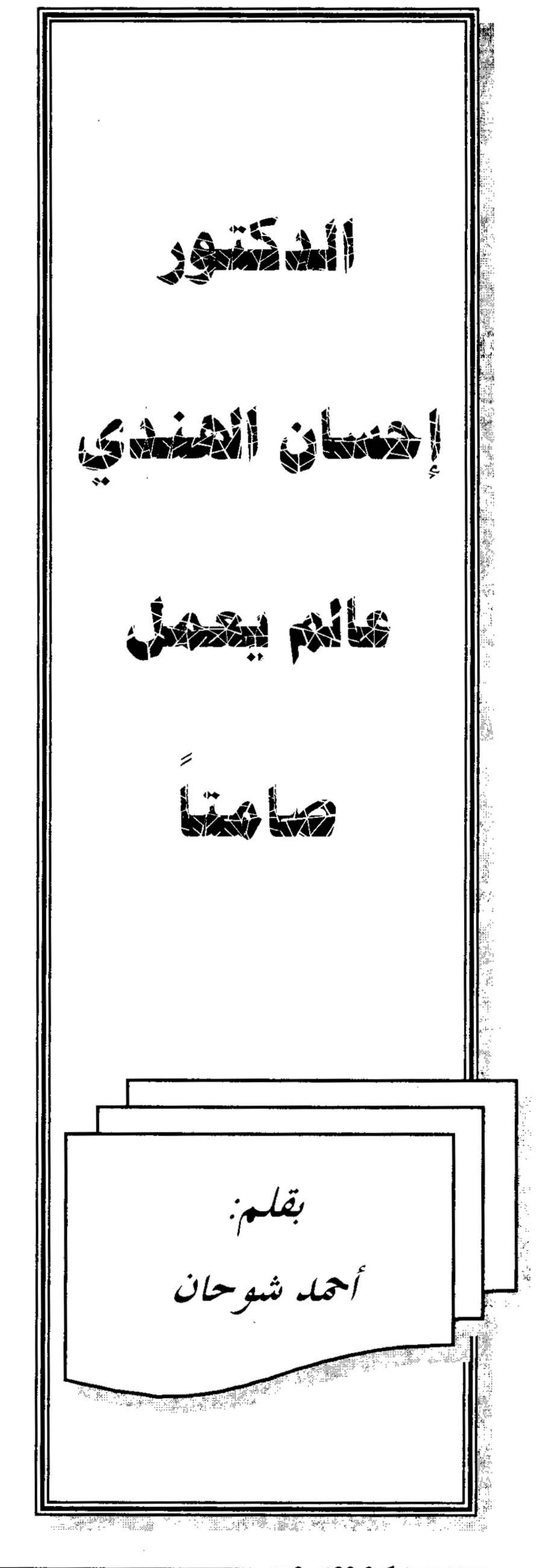






وداعــب ريــشتي الخجلــى بيانــي
وأغـــراها التطـــرفُ والــضلال
وخَطَــتْ مــن مِـدادِ القلـب شـعراً
تجلَّـــى في بلاغـــته الكمـــال
فــلا القـــولُ الجمـيلُ أثــار فــيها
عــــواطفَها، ولا اقـــتربَ الوصـــالُ
وغــضَّتْ طـــرفَها المعـسولَ كـبراً
وبـــان علـــى لـــواحظها المُحـــالُ
فحـــرتُ بأمـــر فاتـــنتي وراحـــتْ
تـــرشُّ اللـــومَ واحـــتدمَ الجـــدال
وصـــدَّتْ عـــن مـــبادلتي هـــواهَا
ولم يـــنفعْ رجـــاءٌ وابـــتهالُ
ولا لانـــــتْ لقافـــيةٍ وشـــعرٍ
وشـــدتْ رحلَهـــا البـــنتُ الحـــلال
وغابـــتْ بعـــد أنْ تـــركت فـــؤادي
حُطامـــاً مـــا لـــه أهـــلٌ وآل
لممـــتُ عواطفـــي وطـــويتُ جنحـــي
علـــى ضَـــعفي وضِـــعتُ. ولا أزالُ
وعـــدّتُ أجـــرُّ أذيالـــي خجـــولاً
وغـــادر بـــابَ مـــزرعتي الغـــزال



يعتبر الدكتور إحسان الهندي من أعلام سورية المعدودين، ومن مثقفيها أوائل الذين تركوا بصمات واضحة المعالم في ميادين الأدب والثقافة والمعرفة، إلى جانب الدراسات القانونية، والعسكرية، والفكرية، والتاريخية.

تعود معرفتي به وسماعي باسمه لأول مرة حين كان ضابطاً في الجيش السوري وكنت طالباً في المرحلة الثانوية التجارية، وذلك عام ١٩٦٤ حين قرأت شيئاً من كتابه (كفاح الشعب السوري) ثم أردفته بترجمته لكتاب (دمشق تحت القنابل) ومنذ تلك الأيام أحببت الرجل عن بعد دون أن أعرف عن هويته شيئاً.

وبعد أن تحركت من سباتي القلمي الطويل عام ١٩٩١ والتحقت في اتحاد الكتاب العرب بدمشق تعرفت على الدكتور إحسان في جمعية البحوث والدراسات، حيث انتخب في عام ١٩٩٣ مقرراً لهذه الجمعية وبقي فيها إلى أن أحيل إلى التقاعد عام ١٩٩٦ حيث بدأت هذه الجمعية تهتز من قواعدها بعد غيابه، فغاب عنها كبار الكتاب، والتحق بها كتاب آخرون صاروا يتزاحمون ويتطاول عليها ويتطاول بعضهم على رؤوس أصابع قدميه ليبلغ شأو غيره وما هو ببالغه.

يومها عرفت سر غياب كبار كتابنا عن هذا الاتحاد من أمثال عبد السلام العجيلي، وبدوي الجبل، وعمر أبي ريشة، ومحمد الفراتي، ومحمد المهدي الجواهري وغيرهم من هذا القبيل، ولكن حين غاب إحسان الهندي عن جمعية البحوث كانت خسارتنا كبيرة، لأنه من جيل أولئك العمالقة الغائبين.

وبعدها أصبحت ألتقيه في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، أو أنفث له بعض همومي الأدبية والثقافية أو من خلال الرسائل. فكان يخفف لي بعض تلك الهموم برسائل تقطر

أسفاً، وتعتصر ألماً، وبما لم أصل إلى شواطئه بعد.

مولده ونشأته

في مدينة حماه التي تنام وتستيقظ على صرير نواعيرها العتيقة ولد الطفل محمود إحسان الهندي من عائلة كريمة معروفة في حماه بنسبها وجذورها، وذلك في السادس من آذار سنة ١٩٣١ حيث كانت البلاد خاضعة للمستعمر الفرنسي الذي أصلى المدن السورية بقنابل ويلاته، وكانت مدينة حماه في طليعة المدن التي رفضت الذل والهوان، فثارت في وجه الاحتلال ولقنته دروساً في البطولة والوطنية شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء.

نشأ إحسان بين والديه ثم دخل المدرسة الابتدائية، ورأى منذ طفولته عجرفة وصلف جنود الفرنسيين، وأفاعيلهم بالآمنين، فأخذ يفكر منذ نعومة أظفاره بالرد على هؤلاء الصاع صاعين، وتمنى أن يكون ضابطاً في جيش بلاده ليقوم بدوره في الدفاع عن أمنها واستقلالها.

في الجيش السوري

كبر الفتى ودرس الإعدادية ثم نال الشهادة الثانوية الفرع الأدبي عام ١٩٤٩ فتطوع في الجيش السوري بعد أن نالت البلاد استقلالها وإجلاء العدو المستعمر عن أراضيها، وأصبح طالباً بين ضباط الكلية الحربية في حمص ثم تخرج برتبة ملازم ونال شهادة الكلية العسكرية عام ١٩٥٢. ثم نقل في نفس العام إلى مدينة دير الزور حيث قضى فيها فترة لا تغيب ذكرياتها عن ذاكرته، لقد شاهد فيها المقاهي النهرية والشراديق، وشاهد نهر الفرات وجزره الكبيرة والكثيرة فأعجب بها، ثم نقل إلى دمشق فأصبح رئيساً لفرع الصحافة في الإدارة العامة للتوجيه المعنوي، حيث استطاع فيها أن يتم تحصيله الجامعي، ومنها انطلق للتعليم الجامعي فيما بعد إلى عدد من الجامعات العربية.

دراسات وشهادات

استطاع الشاب الضابط الذي سكن دمشق أن يصل إلى طموحاته التي كان يحلم بها منذ الصغر، فكل شيء في دمشق واسع المدارك، وكل ما يطمح إليه المثقف خلال حياته يجده فيا. واستطاع وهو في السلك العسكري أن يدرس في جامعة دمشق وفي أكثر من قسم، فقد درس الحقوق ونال إجازة في عام ١٩٥٨، ودرس التاريخ في قسم الآداب فنال إجازة في عام ١٩٦١، ودرس في قسم اللغة الفرنسية فنال شهادة (ليسانس) في الآداب عام ١٩٦٥.

وفي نفس العام نال شهادة دبلوم في القانون المقارن من جامعة اللوكسمبورغ وتابع دراساته في جامعة دمشق فنال شهادة الدبلوم عليا في القانون العام عام ١٩٦٦. وفي عام ١٩٦٧ نال شهادة الدبلوم عليها في القانون الخاص. ثم نال شهادة الدكتوراه دولة في القانون بمرتبة الشرف في جامعة دمشق عام ١٩٧١. وكانت رسالته بعنوان (حقوق السكان في المناطق المحتلة وحمايتها).

تدريسه

غادر الدكتور حسان الهندي السلك العسكري بعد أن سرِّح منه في عام ١٩٦٣، فاتجه نحو التعليم، فدرَّس في ثانويات دمشق الخاصة والحكومية من عام ١٩٦٣ حتى عام

١٩٧١ مدرساً لمادة التاريخ، ثم انتقل إلى الجزائر في جامعة وهران عام ١٩٧١ ليبقى فيها مدرساً حتى عام ١٩٧٤، ثم عيّن في معهد التكوين الإداري أستاذاً مساعداً في وهران خلال عام ١٩٧٤ و ١٩٧٥.

وعاد إلى دمشق فعين في كلية الحقوق رئيساً لإدارة الامتحانات عام ١٩٧، ثم انتقل إلى المغرب ليكون أستاذاً مساعداً في كلية العلوم الاجتماعية والاقتصادية والقانونية بجامعة الحسن الثاني في الدار البيضاء من عام ١٩٧ إلى عام ١٩٨١، ثم عيّن أستاذاً للتعليم العالي في الكلية نفسها بين عامي ١٩٨١ و ١٩٨٢.

والدكتور إحسان عضو الهيئة التدريسية في جامعة الإمارات العربية المتحدة في كلية الشريعة والقانون بين عامي ١٩٨٢ - ١٩٩١، حيث أصبح بين عامي ١٩٩٣ و ١٩٩٦ رئيساً لقسم القانون ثم عميداً للكلية نفسها في جامعة العلوم الإسلامية العربية بدمشق، وهي جامعة خاصة يشرف عليها الدكتور عبد اللطيف فرفور. وخلال نفس الفترة كان مقرراً لجمعية البحوث والدراسات في اتحاد الكتاب العرب. ثم أصبح نائباً لرئيس الجامعة المذكورة للشؤون الأكاديمية بين عامي ١٩٩٦ و ١٩٩٧.

مِنَح الجامعات والمعاهد

استطاع الدكتور إحسان الهندي أن يوصل اسمه بسبب تفوقه ونبوغه قبل أن ينال شهادة الدكتوراه في جامعة دمشق عام ١٩٧١ وذلك عن طريق التدريس الذي زاوله منذ عام ١٩٦٣، والذكاء الخارق الذي كان يمتاز به بين أقرانه، ولذلك راحت الجامعات والمعاهد تمنحه المنح تقديراً لتفوقه. منها:

١- منحة (جامعة المتوسط الصيفية) لسنة ١٩٦٥ و ١٩٦٦.
٢- منحة (المعهد الدولي للقانون المقارن) (f-I-d-c) لسنتي ١٩٦٦ و ١٩٦٩.
٣- منحة (المعهد البريطاني للقانون الدولي والقانون المقارن (b-I-I-c-l) لعام ١٩٦٩ - ١٩٧٠.

في المؤتمرات والندوات

شارك الدكتور إحسان في العديد من المؤتمرات والندوات الدولية التي عقدت لمناقشة القوانين والبيئة والتلوث والدراسات العسكرية.

لقد شارك في الندوة العلمية لتاريخ العلوم عند العرب في حلب عام ١٩٧ وقدم فيها بحثاً بعنوان: (التآليف العسكرية والحربية عند العرب والمسلمين).

كما شارك في الندوة نفسها في عام ١٩٩٦ في حلب أيضاً وببحث بعنوان: (العرب واختراع البارود).

وشارك في المؤتمر العشرين لتاريخ العلوم عند العرب في حلب عام ١٩٩٩.

وشارك في ندوة كلية الشريعة والقانون بجامعة الإمارات - العين - ١٩٨٥ وكان بحثه بعنوان (دور القانون في تطوير المجتمع).

وشارك في الندوة العالمية الأولى لحماية البيئة البحرية من التلوث في مدينة العين عام ١٩٨٩ بعنوان: (الاتفاقيات الدولية لحماية البيئة البحرية من التلوث) كما شارك في مؤتمر التراث العلمي عند العرب (اليونسكو) في بيروت فألقى بحثاً بعنوان (تصنيف المدافع في بداية القرن السابع عشر). ولا زال نشاطه في أوجه فهو يكتب ويحاضر ويشارك في الندوات والمهرجانات

التاريخية والقانونية، وينهمك في حضور المحاضرات مهاما كان نوعها.

مؤلفاته

كتب الدكتور إحسان الهندي كتباً كثيرة في الآداب والفنون والأدب الشعبي والتاريخ والقانون والفكر القومي، كما قام بترجمة بعض الكتب عن الفرنسية، فهو متعدد الاتجاهات، وموسوعي الكتابات.

من هذه الكتب:

- كفاح الشعب العربي السوري – إدارة التوجيه المعنوي – دمشق ١٩٦٢.
- الحياة العسكرية عند العرب، الفن الحديث العالمي – دمشق ١٩٦٤.
- دمشق تحت القنابل – تأليف أليس بوللو – ترجمة عن الفرنسية – دار الاعتدال بدمشق ١٩٦٧.
- معركة ميسلون – وزارة الثقافة والإرشاد القومي – ١٩٦٨ – دمشق.
- قوانين الاحتلال الحربي – الإدارة السياسية بدمشق ١٩٧٢.
- الجيش العربي في عصر الفتوحات – هيئة تدريب الجيش – دمشق ١٩٧٣.
- الحل العادل – دار النفائس – بيروت ١٩٧٤.
- الحوليات الجزائرية (تاريخ المؤسسات) – دار العربي – دمشق ١٩٧٧.
- مبادئ القانون الدولي العام في السلم والحرب – دار الجيل – دمشق ١٩٨٤.
- معركة وادي المخازن – مركز الدراسات العسكرية – دمشق ١٩٨٤.
- قوانين المطبوعات والنشر في دول الخليج – مكتبة الإمارات – العين ١٩٨٥.
- الأنيق في المناجيق لابن أرنبغا الزردكاش (تحقيق) معهد إحياء المخطوطات العربية – الكويت – ومعهد التراث العلمي – حلب ١٩٨٥.
- الإسلام والقانون الدولي – دار طلاس – دمشق ١٩٩١.
- لمحة عن الموّلات السورية – دار طلاس – دمشق ١٩٩١.
- أحكام الحرب والسلام في دولة الإسلام – دار النمير – دمشق ١٩٩٣.
- جريمة الخبير المدان (نفي رسمي لأسطورة الهولوكوست الصهيونية) – ترجمة عن الفرنسية – مركز الدراسات العسكرية – دمشق ١٩٩٤.
- العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحرب والمدافع – ابن غانم الأندلسي – تحقيق – مركز الدراسات العسكرية – دمشق ١٩٩٦.
- خفايا وأسرار بناي بريث (ترجمة عن الفرنسية) دمشق ١٩٩٥.
- كلمات في الفكر والتاريخ – اتحاد الكتاب العرب – دمشق ١٩٩٦.
- مائة موّال في الغزل – دار المدني – دمشق ١٩٩٧.
- الحماية الجزائرية للاتفاقيات الدولية الإنسانية في إطار التشريع والاجتهاد القضائي السوريين.
- تاريخ الجيش العربي السوري (بين ١٩٠٨ – ١٩٤٨) كتب عام ١٩٩٩.

في الدوريات

بدأ حياته القلمية بالشعر المنثور والقصص القصيرة عام ١٩٥١ وفي بداياته نشر في الصحف والمجلات الدمشقية مثل: مجلة الدنيا، الرقيب، والجامعة لنشأة التغلبي. ثم في مجلات: الهندي، جيش الشعب، والمجلة العسكرية، والمعرفة، والمعلومات الدولية. كما

نشر في الصحف السورية: البعث، الثورة، الأسبوع الأدبي، وفي المجلات السورية ومنها: التراث العربي، الموقف الأدبي التي يصدرها اتحاد الكتاب العرب بدمشق، ثم في مجلة الكرنك التي تصدرها وزارة السياحة بدمشق.

أما خارج القطر السوري فقد نشر في أمهات المجلات المتخصصة في سائر الأقطار التي حل بها مدرساً في جامعاتها، أو راسلها، منها:

مجلة العربي (الكويتية) - الفيصل (السعودية) - المنهل - الحرس الوطني - الدفاع - درع الوطن - التعاون (الخليجية) - حماة الوطن (الكويتية) - القوى الجوية (الإماراتية) - الشريعة والقانون (الإماراتية) - درع الوطن التي تصدرها جامعة الإمارات بالعين - الدوحة (القطرية) - المجلة العربية للفقه والقضاء (الرباط) - مجلة جامعة الملك سعود (الرياض) - ومجلة العدالة (أبو ظبي).

وهذا يعني أنه راسل هذه الصحف والمجلات من دمشق وكتب لها خلال رحلاته مدرساً في جامعاتها.

رسالة وجواب

حينما قررت كتابة هذه المقالة أرسلت له رسالة أقول فيها: "... إنني أزمع كتابة مقالة عنكم، لذا أتوجه إليكم راجياً كتابة نبذة مسهبة عن حياتكم، وشيئاً عن مؤلفاتكم، وأماكن تدريسكم، والأقطار التي زرتموها.. أرجو بيان رأيكم في الوضع الثقافي بدير الزور من خلال حضوركم لهذه المدينة أكثر من مرة. ومن خلال مداخلات ومناقشات الجمهور للمحاضر.."

وجاء جوابه سريعاً يقول: "... أرسل لك طياً صورة عن سيرتي الذاتية والعلمية. لتأخذ منها ما تشاء وتترك ما تشاء.. أما بالنسبة للوضع الثقافي في مدينة دير الزور فأعتقد، وأقولها صادقاً بأنه أفضل من دمشق من حيث (التلقي) وأقل من دمشق من حيث (العطاء). عموماً تبقى دير الزور وأهلها على العين والرأس ابتداءً من المرحوم محمد الفراتي ومروراً بالمرحوم عبد القادر عياش، ولكن شهادتي بالدير (مجروحة) لأن هناك ذكريات حميمة لي عشتها فيها منذ عام ١٩٥١.. واسلم لأخيك."

وطلب مني عدداً من الصور عن دير الزور ليقدمها في مجلة (الكرنك) مع مقال عن دير الزور ووادي الفرات. فزودته بما طلب ثم أرسل لي رسالة يقول فيها: "أهديك من تحياتي أعطرها، ومن السلام أصدقه وفاء واعتزازاً بصداقتك. ولكنني عاتب عليك في تسمية دير الزور (مدينة العجاج) لأنها كانت وستبقى مدية (الشراديق) و (المقاهي الفراتية) و (الإخوة الطيبين).

أما لقاءاتي به في مكتبة الأسد فتكررت كثيراً حتى إنه إذا التقى بولدي ياسر سُرَّ به وحمله لي الأشواق والتحيات هيلاً بلا كيل.

رأي في الوحدة العربية

يرى المفكر إحسان الهندي أن الوحدة العربية يمكن أن تتحقق في العصر الحديث لتشمل الوطن العربي من جبال زاغروس والخليج العربي شرقاً إلى المحيط الأطلسي والصحراء الكبرى غرباً، ومن جبال طوروس والبحر المتوسط شمالاً إلى منابع نهر النيل والقرن الإفريقي جنوباً، وذلك على الشكل التالي:

إن الوطن العربي يتشكل من أربع وحدات جغرافية - اقتصادية - اجتماعية، وهذه الوحدات هي:

١- بلاد الشام والعراق ونعني ببلاد الشام (سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن).
٢- الجزيرة العربية: وتضم السعودية واليمن وعُمان وإمارات الخليج.
٣- وادي النيل وتضم مصر والسودان وأرتيريا وجيبوتي والصومال.
٤- المغرب العربي: ويضم ليبيا وتونس، والجزائر والمغرب وموريتانيا والصحراء الغربية.

المرحلة الأولى:

يرى الباحث أن توحيد هذه الدول في المجموعات الأربع يتم بشكل (اتحاد فيديرالي) بحيث تتشكل أربع مجموعات في كل مجموعة عدة دول تشكل فيما بينها اتحاداً فيدرالياً.

المرحلة الثانية:

ينشأ اتحاد كونفيديرالي بين هذه المجموعات الأربع.

المرحلة الثالثة:

يتم دمع الدول ضمن كل مجموعة ليشكل الوطن العربي أربع دول (مجموعات) وفي الوقت نفسه يقوم اتحاد فيديرالي بين هذه المجموعات الأربع. لتكون المجموعات دولة واحدة.

هكذا يرى الدكتور إحسان الهندي قيام الوحدة العربية على مراحل ومدة كل مرحلة ثلاثون سنة وهذا يعني أن المسؤولين إذا خطوا اليوم الخطوة الأولى فسيتم (اتحاد الدول العربية) بعد مائة سنة وأظن أن هذه الاتحادات تتم نظرياً وبطريقة الحبر على الورق.

وأظن أنه الوحدة العربية قد أصبحت سراباً في العصر الحديث، لأن القطرية قد تجذرت في كل قطر مهما صغر أو كبر، ولأن أول وحدة عربية (الجمهورية العربية المتحدة) لم تستطع البقاء أكثر من ثلاث سنوات، ولأن رئيسها جمال عبد الناصر لم يصدر أوامره للقضاء على حفنة العسكريين الانفصاليين وإعادة الوحدة وتصحيح الأخطاء.

أعود إلى الدكتور إحسان حول الوحدة المقترحة فأقول: لو أنه مال إلى الوحدة الاندماجية على أن ينص دستورها حماية الوحدة وحدودها بنص القانون من القائد العام (قيادة الجيش) أو الرئيس الأعلى للدولة لكان أمنع وأقوى لهذه الوحدة، على أن تأخذ بالتقاليد العربية والإسلامية في هذا الدستور، وأن تساير عصرها ومقتضياته في السلم والحرب والاقتصاد والنهضة.

مع الأدب الشعبي

يظن انبعض أن الأدب الشعبي أدب قد تردى عن الأدب العربي لفقدانه الكثير من الضوابط والأصول التي لا بد منها، كالالتزام بأصول اللغة ومخارج الحروف العربية وموازين الشعر المعهودة، ناسين أو متناسين المعلقات العربية التي هي أدب عصرها، ونجد الدكتور إحسان الذي كتب في كافة وجوه الثقافة من القانون الدولي إلى الأدب الشعبي (المو ليا) يتبنى هذا الرأي ويعتبر الأدب الشعبي صورة صادقة لحياة الشعب، ولوناً جميلاً من ألوان الغناء الذي ساد خلال فترات طويلة في سورية وغيرها، ثم مرت عليه عاديات الزمن فنالت منه فتردى وكاد يغيب عن الساحة الأدبية، بسبب تطور وسائل الإعلام الحديثة من تلفاز، وقنوات فضائية، وصحف متنوعة، وأشرطة تسجيل، وأقراص ليزرية، وممغنطة وغيرها.

ونجد الأستاذ الهندي متحمساً لهذا النوع من الأدب، ويحفظ الكثير منه، يتجول في مناطق انتشاره في سورية ليقرأ

مخطوطاته ومطبوعاته، ويسمع ما لم يدون من تأليف ناظميه، وحيث أنه نشأ في بيئة محافظة تهتم بالتراث والموروث الشعبي فقد حفظ كثيراً من الأدب الشعبي والعتابا والمواويل والأمثال والحكم وغيرها، فهو في مقدمة كتابه (لمحة عن الموّالات السورية) يقول: "قصتي عن المواويل عمرها نصف قرن بالتمام والكمال، فقد بدأت اهتمامي في الموّالات منذ عهد الطفولة حين كنت لا أزال أسكن في مدينة حماه (١٩٣٥ - ١٩٥٠) وهي فترة العهد الذهبي للاهتمام بالموال في سورية". ثم يبين أن الأدب الشعبي ليس حصراً على المهتمين به والمثقفين، وإنما هو ملك الشريحة الواسعة من الشعب بلا فوارق بينهم، أو تشذيبهم إلى طبقات، فوالداه لا يقرآن أو يكتبان، ومع ذلك يسجل شهادته فيهما فيقول: "بالنسبة لي شخصياً لقد نشأت في عائلة يحفظ الأب والأم فيها مئآت الموّالات بالرغم من أنهما أمّيان لا يجيدان القراءة والكتابة.

وقد كان سائداً في المجتمع السوري في تلك الأيام وفي حماه خاصة أن الأعراس والاحتفالات الشعبية المختلفة كانت مناخاً ملائماً لهذا النوع من الأدب الشعبي، لذلك عشقها الكبار فتفننوا بها، وسمعها الصغار فطربوا له وتناقلوها.

ويؤكد الهندي أن الأدب الشعبي هو السائد في النصف الأول من القرن العشرين وأنه يندر وجود حموي تجاوز الخمسين من عمره لا يحفظ عن ظهر قلب العشرات من تلك المواويل إذا لم نقل المئات. وفي مطلع الستينيات دخل التلفزيون كل بيت في سورية فبدأ الأدب الشعبي في سائر مدن القطر في الانحسار، مما دعا الهندي وهو في تلك الأيام ضابط في الجيش السوري إلى العمل الجاد نحو توثيق وتدوين هذا النوع من الأدب والقيام بزيارات خاصة ومقابلة الموّالين (ناظمي الموّال) والحافظين والجامعين في مدينة حماه ثم في مدينة حلب وريفها، فاستطاع أن يجمع الكتب المدونة والمخطوطات والموّالات التي لا تزال تتداول على ألسنة الموّالين، بحيث استطاع خلال تلك الفترة أن يجمع حوالي ثلاثة آلاف موّال. منها ما يقرب من ألفين وخمسمائة موّال سوري، والخمسمائة الباقية موّالات عراقية أو خليجية أو مصرية أو لبنانية.

لقد أدلى الدكتور هندي دلوه في دراسة جانب الأدب الشعبي (الموّال) ولو أتم مشروعه في دراسة الألوان الأخرى من هذا الأدب (كالعتابا) التي جمع بعضها رجل بدير الزور ديواناً جمع الفراقيات والهواويات ثم أصدرت من بعده ديواناً كبيراً (ديوان العتابا) في الفراقيات لكبار المعتبين الديريين، وقد أهديت له نسخة منه، بعد أن أهديته كتابي الأول (ديوان عبد الله الفاضل وقصة حياته) إذ أن العتابا أهم بكثير عن الموّال، ففيها صور صادقة لمعاناة الشعب وويلاته ونكباته في الفراقيات، وفيها صور ناطقة إلى درجة المبالغة في وصف الحبيبة والغزل والغرام في (الهواويات)، وبذلك يكون الأستاذ الهندي قد خدم الموروث الشعبي وأعطى المهتمين اهتماماً ودراسة بهذا النوع من الأدب الذي قد لا نجد له نظيراً عند غيره.

رجل القانون الدولي

للدكتور الهندي مقالات ومؤلفات عن القانون الدولي، وهو الحائز على شهادة الدكتوراه في هذا الاختصاص، ولا شك أنه قد جنّد خبرته في خدمة أمته من خلال ذلك، ووضع الحلول للقضية الفلسطينية، وللوحدة

العربية، وللقانون الدولي، ونجده من خلال دراساته باحثاً متمكناً، وكاتباً ضليعاً، ومفكراً عميق النظر، ينزع إلى تجارب أمته ويضع الحلول المناسبة من خلال تجربة ميدانية نجح العرب فيها يوم كان الآخرون في ظلام دامس.

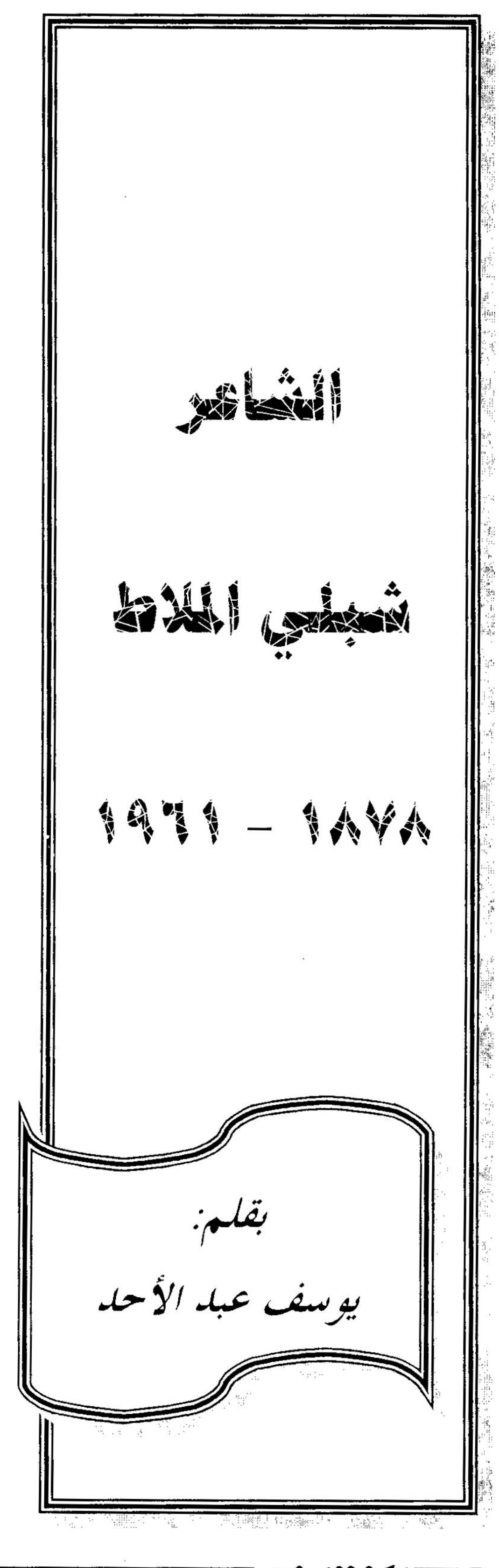
يقول عن القانون الدولي: "إن القانون الدولي الوضعي لم يتكامل ويستقل إلاَّ بعد معاهدة (وستفاليا) فإننا نختلف معهم في شأن الاعتراف بوجود (قانون دولي إسلامي) ولد قبل هذا التاريخ بوقت طويل، ونما وتكامل في فترة كان الغرب المسيحي فيها يغط في ظلمة الجهل".

ولتبرئة الإسلام من ثغرات وأغاليط القانون الدولي المعاصر، فإنه يصر على أن قسماً من القانون الدولي أقره الإسلام ومارسه منذ أكثر من ألف عام، بل نجد التقصير في إيضاح وعرض قانون الحرب والسلام في الإسلام، والروح الإنسانية في الحرب من خلال آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ التي أمرت بأن تكون الحرب عادلة إنسانية، وهو ما دعا الباحثين المنصفين إلى الاعتزاز بهذا القانون الذي سنه الإسلام قبل غيره، ومارسه العرب في فتوحاتهم قولاً وعملاً قبل الغزو المغولي والصليبي والاستعمار الحديث بأكثر من ألف عام، والدكتور إحسان الهندي واحد من هؤلاء الباحثين المنصفين من غير تشنّج أو تعصّب، فهو يعرض الصورة العربية والممارسة في الحرب في كتابه الإسلام والقانون الدولي فيقول: "وليس من قبيل التعصب الديني أو القومي أن نقرر أن العرب المسلمين كانوا أول من أدخل الروح الإنسانية في الحرب، بل إنهم قد عرضوا قانون الحرب بشقّيه أي ما يسمى بقانون لاهاي وما يسمى بقانون جنيف وطبقوه قبل تدوينه دولياً بثلاثة عشر قرناً. ونحن متأكدون من أنه لا توجد أي قاعدة من القواعد التي أتت بها معاهدات لاهاي وجنيف المتعاقبة إلاَّ ولها أساس من القرآن الكريم، أو السنة الشريفة أو التخريجات الفقهية اللاحقة، اللهم إلاَّ تلك التي تتعلق بأمور أو بمخترعات لم تكن موجودة في عهد ظهور الرسالة المحمدية، وإذا كان بعض الباحثين الأوربيين لا يعترف بذلك جهلاً أو تعصباً فإن نفراً من كتابهم ومؤرخيهم المنصفين قد اعترفوا بذلك منذ وقت طويل.

رجل الفكر والقلم

حقاً إن الأستاذ إحسان الهندي رجل فكر وقلم، فكلما ذهبت إلى مكتبة الأسد الوطنية بدمشق كنت ألتقيه فيخبرني بما يكتب وأخبره بما أكتب فيسر وتنشرح أساريره، وحين كان مقرراً لجمعية البحوث والدراسات في اتحاد الكتاب العرب، كنا نلتقي شهراً في قاعة الاجتماعات ضمن مبنى الاتحاد فكان يُتحفنا بمجلسه، ويطربنا بأحاديثه، حتى إنه كان يمزح ويضحك، ويمازح الأعضاء المجتمعين بالنكات اللطيفة، والمداعبات العذبة، ولا أظن أن الذين جاؤوا من بعده قد بلغوا شأوه في حسن إدارة الاجتماع، فقد كان صادقاً مخلصاً لا يداري ولا يماري ولا يهمه إرضاء زيد أو عمرو، بل كان همه الوحيد أن تبقى هذه الجمعية على أحسن ما يرام وقد كانت، فلما غاب عنها حين أحال نفسه للتقاعد، غابت عنها القدرة على تفعيل هذه الجمعية التي كانت تجمع كبار رجال الفكر والثقافة في القطر السوري.

حقاً.. لقد كان الدكتور إحسان الهندي أخاً عزيزاً، ومفكراً مخلصاً ومثقفاً يدلي بدلوه في كل مجال.



أديب وشاعر وخطيب المنابر ورائد القصة الشعرية في الأدب العربي الحديث ولقب بشاعر الأرز لأن شجر الأرز دائم الاخضرار والشموخ.

ولد في بعبدا عاصمة متصرفية جبل لبنان، والده يواكيم الملاط وأمه (عطر) ابنة شبلي أبي حسون ياغي الحلو، وشقيقه الشاعر الفذ تامر الملاط (١٨٥٦ - ١٩١٤) فقد ربّت الأم ولديها بعد موت الوالد وكان تامر بمثابة الأب لشبلي.

تلقى دراسته الأولى في مدرسة الضيعة على يد الراهب بطرس ثابت من دير القمر الذي كان متضلعاً من اللغة العربية، ثم أرسله شقيقه تامر إلى مدرسة في (جبل) أنشأها بطرس شحادة أمض فيها سنة واحدة ثم أغلقت أبوابها بسبب وفاة صاحبها، ثم انتقل إلى مدرسة الحكمة المارونية في بيروت ودرس فيها البيان والعروض وتخرج منها.

بعد تخرجه مارس التدريس في معهد (الثلاثة أقمار) في بيروت ثم في مدرسة (المزار) في غزير فمدرسة الحكمة في بيروت، وكان إلى جانب التدريس يُعنى بالكتابة والشعر فوضع وعرّب روايات تمثيلية منها الفريد الكبير والكونت وقصائده في الصحف اللبنانية منها الروضة والأرز والنصير.

وفي عام ١٩٠٨ أصدر جريدة (الوطن) في بيروت وأشرف على إدارتها، وشارك في تحريرها نخبة من الأدباء منهم الشيخ اسكندر العازار والمحامي فائق غرغور واسكندر الرياستي وغيرهم، ثم أعاد إصدارها في عهد الانتداب مع الشاعر وديع عقل.

وفي عام ١٩١٦ شغل وظيفة مديرية التحريرات، وعيّن خلال الحرب العالمية الأولى رئيس القسم العربي في متصرفية جبل لبنان ثم مديراً للجريدة الرسمية ومطبعتها حتى عام ١٩٢٤، وفي عهد الانتداب شغل منصب مدير (لزغرتا) ثم عيّن قائمقام لمنطقة المتن وبعدها تسلم أمانة مجلس النواب اللبناني حتى عام ١٩٣٩.

وفي عام ١٩١٦ تزوج من إلانة ماري ابنة الدكتور الياس شكر الله وأنجبت ثلاثة أولاد هم: شوقي ووجدي وغرامي.

لقد حمل شبلي رسالة بلاده ومثل لبنان في مهرجانات الشعر في العالم العربي فقد شارك في مهرجان تكريم خليل مطران سنة ١٩١٣ في القاهرة وفي مهرجان مبايعة شوقي إمارة الشعر سنة ١٩٢٧ في القاهرة وفي مهرجان إزاحة الستار عن تمثال فقيد العلم والفضيلة المطران جرمانوس فرحات سنة ١٩٣٤ في حلب، وكان مطلع القصيدة في هذه المناسبة:

الدين مصباح الهدى ومناره
والعلم ريحان الوجود وغاره

وفي مهرجان تأبين الملك غازي سنة ١٩٣٩ في بغداد وفي مهرجان الثاني للشاعر خليل مطران سنة ١٩٤٧ في القاهرة ومن شعره في علم وطنه قال:

علمي ولست بتارك علمي
حتى يخضّب جانبيه دمي
أشقى الورى شعب بلا وطن
وأذلهم قوم بلا علم
دفن الزمان بأرزاتي قدماً
مجد الشباب وحكمة الهرم

وفي عام ١٩٢٢ زارت لبنان الأديبة مي زيادة وأُقيمت لها حفلة تكريم فأنشد شبلي قصيدة جاء فيها:

ألا حملوا إليك حديث مي
كأزهار الجنائن في شذاها
وهل رصدوا فرائدها الغوالي
كأبراج الكواكب في سماها
وهل طافوا بمكتبها وحجوا
هنالك في الكنانة منتداها

قال عنه الأديب خليل رامز سركيس:

"إن صعود شبلي الملاط على المنبر في أي بلدٍ عربي يرجح كفته على كل الخطباء نثراً وشعراً".

أما الناقد مارون عبود فقد شبّه شبلي وهو على المنبر بحصان امرئ القيس (مكرّ مفرّ).

توفي شبلي الملاط في ٨ شباط ١٩٦١ وأُقيمت له حفلة تأبين كبرى في قاعة اليونيسكو في بيروت في العاشر من كانون الأول سنة ١٩٦١ شارك في التأبين نخبة من الشعراء والأدباء من البلاد العربية منهم: الشاعر حافظ جميل من العراق والشاعر بدوي الجبل من سورية والشاعر أحمد رامي من مصر.

أعماله الشعرية

١- ديوان تامر الملاط وأخيه شبلي - بيروت ١٩٢٥
٢- ديوان شاعر الأرز شبلي الملاط: إعداد: وجدي ملاط (سلسلة منارات مطبعة رعيدي (لبنان) ٢٠٠١.

أعماله المعربة في القصة الشعرية

١- شرف العواطف
٢- الفرد الكبير ملك انكلترا
٣- الكونت دي استيلا والذخيرة
٤- جاندرك وهزنايي والمرأة الإسبانية
٥- الجمال والكبرياء - رواية غنائية شعرية.
٦- خوله بنت الأزور وأخوها ضرار
٧- بين العرس والرمس
٨- الوردة الذابلة
٩- سيف بن ذي يزن
١٠- شيرين الفارسية
١١- ملكة تدمر
١٢- عذراء بانياس
١٣- عاشقة الطيار ويهوديت.
١٤- أم البنين.





شعر : وداد طويل عبد النور

يـــا شـــامُ يـــا شَـــمْسَ الـــدُنا

بَلَـــدَ الـــنَّدى والعُـــنْفُوانْ..

مَـــنْ لـــي سِـــواكِ علـــى الـضَنى

يـــا شـــامُ إنْ غَـــدَرَ الـــزَّمانْ؟

*　　*　　*

أَدْمَـــنْتُ حُـــبَّكِ مُـــذْ شَـــدَتْ

للحُـــبِّ أَوتـــارُ الكمـــانْ

بَـــلْ مُـــنْذُ أنْ ســـاقى الهَـــوَى

مُهَـــجَ القَـــصائِدِ والبَـــيانْ..

*　　*　　*

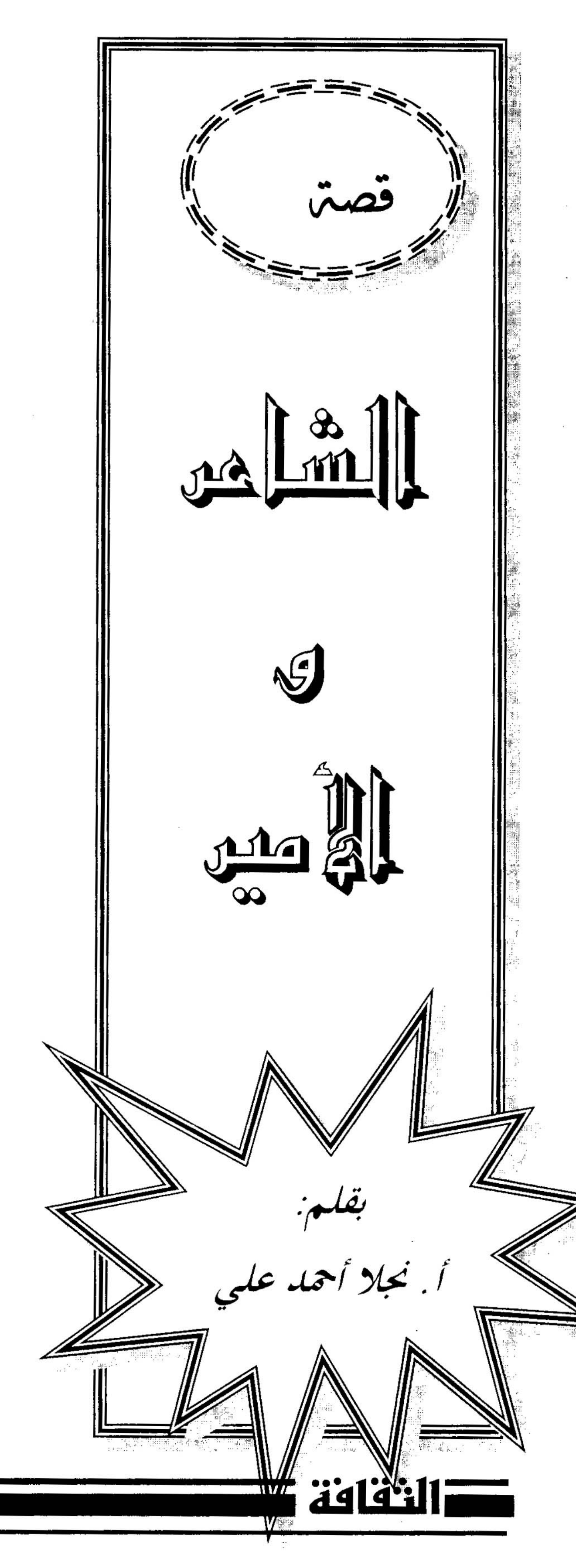






يـــا شـــامُ كَـــمْ مـــنْ طامِـــعٍ
بِحِمـــاكِ قَـــدْ ذاقَ الهـــوانْ
في كُـــلِّ ســـاحٍ مَوْقِـــفٌ
لِلْعِـــزِّ والمجـــدِ المُـــصانْ
وعَلـــى الـــبِطاحِ ملاحِـــمٌ
لِنـــضالِ شَـــعْبٍ مـــا اســـتكانْ
هـــيَّا نُـــتَوِّجُ رَأْسَـــها
بالغالـــياتِ مـــن الجُمـــانْ
هـــيَّا نُعَمِّـــرُ أَرْضَـــها
بالحُـــبِّ والقِـــيَمِ الحِـــسانْ
وَنَـــرُدُّ أَفْـــواجَ الغُـــزاةِ
فـــلا نُهـــادِنُ.. أَوْ نُهـــانْ
يـــا شـــامُ يـــا أُمَّ الـــدُنا
يـــا شـــامُ يـــا حِـــصْنَ الأَمـــانْ
لِلْعُـــرْبِ أَنْـــتِ مَحَجَّـــةٌ
لِلْحَـــقِّ أَنْـــتِ الـــصَّولجانْ
ولأَنْـــتِ (يـــا مَهْـــدَ الحـــضارةِ)
والكـــرامةُ تَـــوْأَمانْ!!



ذات يوم استدعى الأمير أشهر شعراء بلادهِ السعيدة، وسألهُ:

- مَن تعتقد أنهُ أعظم: الأمراء أم الشعراء؟

فسارعَ الشاعر يقول:

- ماذا أسمع يا مولاي؟ وهل تجوز المقارنة بين شمس ساطعة تبهر البصر، وبصيص ضوء شحيح؟

قالَ الأمير ساخراً:

- كنْ رجلاً مرةً واحدة، وأعطني إجابة صريحة معلّلة وإلاّ قطعتُ رأسك.

تكتكت أسنان الشاعر كرقّاص ساعة عتيق، وارتجفت رُكبُهُ من فرط الخوف، ثمّ أجاب:

- الأمراء قطعاً هم الأعظم والأجلّ. إنهم حَفظَة العهد والذمم، وحماة الشعوب والأوطان، وأروع مثل يحتذى في الإيثار والسهر على أمن الرّعايا. أمّا الشعراء، فأدعياء، متواكلون، يذودون عن الديار والمقدّسات بالخطب الحماسيّة، والصياح، والكلام المنمّق، عوضاً عن السيف.

ارتسمت علائم الرّضا والاستحسان على محيّا الأمير، وعلّقَ قائلاً:

- لا بأس، فقد نجوتَ بجلدك. سأثيبكَ على إجابتكَ مثوبة تلهج بذكرها الألسن جيلاً بعدَ جيل.

ابتهجَ الشاعر بما سمعَ، وأحنى رأسهُ شاكراً ممتنّاً:

- هذا شرف لا يدانيه شرف، فرضا الأمير أسمى غايات عبد مثلي.

ضحكَ الأمير بصوت خافت، وفحّ من بين أسنانه:

- منَ الغدّ سأعيّنكَ رئيساً أعلى للسيّافين، فما قولكَ؟

أحسَّ الشاعر بأبواب الجنّة تفتح في وجهه، وتصوّرَ عالماً أخضرَ شاساعاً تحفّ به

الرياض والبلابل والأمواه المسقسقة والغدران، وأفواجاً من النساء المجلببات بالحرير والسندس يسعَينَ نحوهُ بوجوه بيض، وعيون لوزيّة باسمة، وشعور سوداء طويلة، ومشية كمشية الرّشا.

ومعَ أنهُ لا يحبّ الدماء، والأوصال المقطّعة النازفة، ويُصاب بالغثيان من مرآها، فقد أغبطَ نفسهُ لحظوتهِ بـ (لفتة استفقاد) من أمير البلاد.

وأفاقَ من سهومه وتهيّؤاته على صوت مستشار الأمير ينبح غاضباً:

- مولانا يشرّفكَ بنيل أرفع المناصب، وأجزل المنح والعطايا، ولا يليق بجلالتهِ أن ينتظر الجواب.

- رغبات الأمير أوامر مطاعة، ولا يجوز التنصّل منها.

قالَ الأمير:

- لكن، لي عليكَ شرط. فإمّا أن تقبلهُ، أو أبتر لسانك.

انحنى الشاعر أكثر، وأجابَ بقلب واجف مضطرب:

- الأمير يأمر... وحاشاه أن يشترط.

فوقفَ الأمير بعزم ومضاء، وتدلّت كرشهُ الناتئة رجراجة، شطّاطة، فبدت أبطن من كروش الحوامل لحظةَ يأتيهنّ الطّلق.

ثمّ قال:

- شرطي الوحيد أن تهجر الشعر إلى الأبد.

بُهتَ الشاعر، وكادَ يفقد عقلهُ خيبةً وذهولاً. تأتأ، وتلعثمَ طويلاً قبلَ أن يهتدي إلى حيلة تُنجيه من المصيدة التي علقَ بها. أخيراً قال:

- ومَن يمتدح الأمير الرشيد، ويخلّد ذكرهُ إن هجرَ الشاعر قوافيه؟.

قهقهَ الأمير بعنجهيّة وضراوة، بعثتا قشعريرةً ونمالاً في أوردة الشاعر وجلدته. وقال:

- لا حاجةَ لنا بهذيانات الشعراء.

واستدركَ وقد جحظت عيناه:

- الأمراء يخلّدهم السيّافون والأنطاع والرؤوس المتطايرة.

قالَ الشاعر بصوت أشبه بالأنين:

- وما أدرى هؤلاء بفنون المديح والفخر يا مولاي؟.

صاحَ الأمير وقد نفذَ صبرهُ:

- وهل بالشعر يحصد الملوك جماجم الحسّاد والمناوئين؟، أحذركَ أيها الشاعر: فإمّا أن تهجر شعركَ وتصبح سيّافاً أعلى، فتبلغ من السؤدد ما لن تحصّلهُ طيلةَ حياتك المتصعلكة، أو يُقطع لسانكَ ويُمثّل بجثمانكَ.

وأنظرَ الشاعر أربعاً وعشرينَ ساعةً ليدلي بخَياره الصعب على ملأ منَ القوم. فثقُلَ ليلهُ، وعظُمَ هوانهُ وأساه.

وفجراً، سيقَ مكبّلاً بالأصفاد، وأوقف على الجسر، وكانَ الناس قد احتشدوا بالآلاف بأمر من زمّار القصر وطبّاله ومُناديه.

ثمّ تقدّمَ خصيانٌ أشاوس. فبسطوا الأنطاع، وجرّدوا السيوف، وبدأت الطبول تعزف أنشودة الموت الزؤام، والمزامير توقّع أنغام الثأر والخصاء العمد.

وسُئلَ الشاعر من باب اللباقة:

- ماذا اخترتَ أن تكون؟

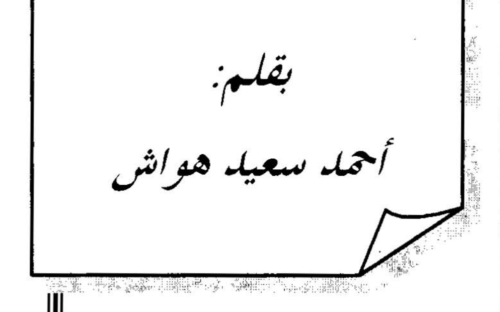
ولم يُحر الشاعر جواباً.

وأحنى هامتهُ لطاقم الجلاّدين البَرَرة، فتعالت إيقاعات الطبول، ودويّ الأصناج والمزامير. وفُتحَ فم الشاعر بفظاظة، وبوعدَ بينَ شقّيه، ثمّ اجتُثَّ لسانهُ، وفُصلَ رأسهُ وألقيَ بهما من علوّ.. فتباعدت الجماهير كأنما خوفاً من طاعون مُميت.

وتدلّى الجسد مصلوباً، بشرايين منبوشة، ونافورات حمر.

من الشعراء الفلسطينيين المنسيين

الأصالة العربية في فكر وشعر المربي نقولا يوسف حنا


بقلم:
أحمد سعيد هواش

نقولا حنا مربي وشاعر عربي أصيل، ولـد فـي قـرية الرامة (عكا) - فلسطين - وتوفـي إثـر حادث أليم أثناء عودته من بلدة (معلـولا) إلى دمشق بعد زيارته هناك لبعض العلمـاء المسلمين للتهنئة بحلول عيد الأضحى المبارك.

تلقـى المربي نقولا حنا تعليمه، حتى المرحلة الثانوية في مدارس (عكا) - فلسطين - وبعد حلول نكبة فلسطين ١٥ أيار ١٩٤٨م، نـزح مع شقيقته المربية هدى حنا إلى القطر العربـي الـسوري، وانتسب للجامعة السورية بدمـشق وحـصل على الشهادة الجامعية في الأدب العربـي، كمـا حـصل على الإجازة في الأدب الإنكليزي من الجامعة السورية.

عمـل المربي نقولا حنا في التدريس خمـسة وعـشرين عامـاً، في مدارس تابعة لـوزارة التـربية، وفـي مدارس تابعة لوكالة الغوث، ومدارس خاصة.

وهـو شـاعر، ومجاهـد، وقـاص، وباحـث.. ارتجـل الشعر ولم يتجاوز الرابعة عشر من العمر، واستمر في ذلك طيلة حياته، فأبـدع فـي قصائد كثيرة وجلّها وطنية مثل: قـصيدة شهداء السلام، وقصيدة على الحدود، ولـه كـذلك قصائد في الحماسة والفخر وفي الـرثاء، والوصف والغزل، ولكنه كان فخوراً بقـصائده الدينية، ومن أهم تلك القصائد التي كتـبت: (مـن وحـي القـرآن) و (أسماء الله الحسنى) و (المولد النبوي) وهناك قصيدة عن حياة القديس الياس.

ونقولا حنا المجاهد، نشأ نشأة وطنية وقومـية، وكـان لا يـتجاوز الثالثة عشر من

العمر حين بدأت في فلسطين ثورة ١٩٣٦م ضد الهجرة الصهيونية إلى فلسطين من جميع أنحاء العالم، فاشترك في تلك الثورة فتعلم استعمال السلاح وقصد (وادي الطواحين) في (صفد) حيث تجمع الثوار، وكان ذلك باكورة نضاله الطويل، بمشاركته الفعالة بالقتال عام ١٩٤٨م، فالتحق أولاً بجيش الإنقاذ، وخاض معهم جميع المعارك التي خاضوها ضد العصابات الصهيونية؛ وبعد النكبة ١٩٤٨م وصل إلى قرية (حينة) في هضبة الجولان السورية، لأنها القرية التي وُلدت ونشأت فيها والدته، وأنشأ فيها مدرسة إعدادية، سمَّاها (مدرسة الهدى) وبعد عشر سنوات على إنشائها ونجاحها استلمتها وزارة التربية، وبقي المربي نقولا حنا مديراً لها لفترة من الزمن، ثم تابع نشاطه التربوي بدمشق، والقامشلي، فعمل مدرساً ومديراً، واكتسب سمعة طيبة في المجال التربوي والوطني، وتخرج على يديه المئات من الطلاب في القطر العربي السوري.

لم يدون المربي نقولا حنا معظم شعره، لذا فقد ضاع أكثره، ولم يحفظ من شعره إلاَّ بعضاً من قصائده الطويلة: (من وحي القرآن) و (أسماء الله الحسنى) و (الملحمة الشعرية لسيرة النبي الياس) بالإضافة لبعض الأبيات التي بقيت محفوظة على ألسنة الأقرباء منها، هذه الأبيات من قصيدته (على الحدود) إذ قال مودعاً داره في قريته (الرامة) في حاضرة عكا - فلسطين:

دار برامة مشغوفٌ بها القلب
ودَّعتُ فيها الصفا مذ فرَّق الهجرُ
تلوح والبعض مرئيٌّ لناظره
والبعض تحجبه أشجارها الخضرُ
وكأنها ما بين مرئيّ ومحتجب
وجه المليحة غطَّى بعضه الشعر

لقد ودع الشاعر نقولا حنا وطنه فلسطين في وداع قريته (الرامة) في أبيات عبر فيها عن حب الوطن والحزن العميق لفراقه مرغماً مع أمل بالعودة إليه..

وهناك بيتان من قصيدة وطني له حفرها على باب مدرسة حينة في الجولان السوري:

عاهدت نفسي أن أكرّس
عمرها وقفاً لأمتي وبلادي
فوقفت نفسي في سبيل عروبتي
ووقفت روحي في سبيل جهادي

ويمكن اعتماد هذين البيتين دليل عمل مشرف للمربي نقولا حنا، وقف نفسه على تحقيقه لا وهو العمل في سبيل الأمة العربية، والجهاد بالشعر والسيف وفي تنشئة أفواج من الشباب تنشئة وطنية وقومية في سبيل تحقيق أهداف الأمة العربية في الوحدة، وتحرير الأجزاء المحتلة من أراضي الوطن العربي وعلى رأسها فلسطين العربية.

وقد اشتهرت قصيدة (من وحي القرآن) للشاعر المربي نقولا حنا، وقد بلغ

عدد أبياتها أكثر من (٧٠) بيتاً، وهي القصيدة التي نالت الدرجة الأولى في المسابقة التي أعلنت عنها الجامعة السورية في عام ١٩٥٨م، وطبعت في كراس صغير مستقل، وهي تحتاج لدراسة موسعة لموضوعها وجمال سبكها، وموهبة قائلها الشعرية وروحه العربية الصافية التي تشبه حبات رمل الصحراء العربية التي انبثق على أرضها الفَجر المضيء للرسالة السماوية الخالدة (رسالة الإسلام الحنيف).

يقول الشاعر نقولا حنا في مقدمته الموجزة والمعبرة للقصيدة (من وحي القرآن):

"قرأت القرآن فأذهلني، وتعمقت به ففتنني، ثم أعدت القراءة فآمنت..

آمنت بالقرآن الإلهي العظيم، وبالرسول من حمله.. النبي العربي الكريم، ومن إيماني العميق هذا استلهمتُ أبيات قصيدتي هذه.."

لنلق شعاعاً على بعض أبيات هذه المطولة الرائعة، وأستغرب لما لم تخصص دراسات أدبية وقومية لهذه الملحمة وصاحبها المربي نقولا حنا؟؟!!

نقرأ مطلعها الجميل الذي بدأه بالحنين لمهبط الوحي (الحجاز) إذ قال:

حجاز.. لقلبي بالحجاز هيام
وَوجدٌ له طي الضلوع ضرام
بعدت ولم تبعد فأنتِ بخاطري
مقيم، فلا مل النزيل مقام
حللت فؤاداً خالياً فملكته
وما قاده إلاَّ إليك هيام

ثم يشير الشاعر نقولا حنا لما لقيه من لوم من بعض الجهلاء السفهاء وذلك لحبه وهيامه بتلك البقاع الطاهرة فقال:

لقد لامني فيك العذول سفاهة
ومن يعشق الأوطان كيف يلام؟
يقول أتهوى منزلاً ما عرفته؟
فقلت أما الأجداد فيه أقاموا؟
فما أنكر الآبار إلاَّ مهجَّن
ولا الدار إلاَّ مارقون لئام

لقد أفحم شاعرنا نقولا حنا أولئك المارقين اللئام، المتنكرين لحب أرض الوطن والأمة، مهد العرب الأول.

ويدعم الشاعر حبه لأرض الحجاز الطاهرة لوجود فرسان عرب أشاوس من القبائل العربية التي دافعت على استقلال الجزيرة العربية وساعدت بنشر رسالة الدين الإسلامي الجديد بني عدنان وقحطان، فقال:

عليها من الفرسان عرب أشاوسٌ
إذا اهتز خطّي وسلَّ حسام
عليها بنو عدنان فاضت جموعهم
وقحطان تتلو والفجاجُ قتام
جبابر لبوا دعوة علويَّة
فغابت نصال جردت وسهام

ثم يشير الشاعر المربي نقولا حنا، لشخصية الرسول العربي الكريم صاحب أعظم رسالة سماوية وما تمتع به من صفات نبيلة جعلته يقوم بنشر هذه الرسالة الخالدة على أحسن وجه فقال:

دعاهم إلى الإيمان بالله وحده
رسول شريف النبعتين همام
محمد خير الخلق من آل هاشم
نبي كريم والجدود كرام
لقد شرف الله الوجود ببعثته
وتم له فوق الأنام مقام

ثم يذكر الشاعر نقولا حنا ببعض الصفات التي عرف بها النبي العربي الكريم محمداً ﷺ فقال:

تقي نقي زاهد متهجد
عزيز أبيَ ليس فيه ملام
شجاع كريم لا يخيِّب سائلاً
ولا عن غياث المستجير ينام
قدير حليم سيد متواضع
حكيم بتصريف الأمور همام
عفيف يفيض الطهر من نور وجهه
حبيب مهيب منذ كان فطام

هذه الصفات السامية كانت معروفة لأبناء الجزيرة العربية وقد تحلى بها الرسول العربي الكريم وذلك منذ ما قبل البعثة المطهرة، فدعوه (الأمين) فقال الشاعر نقولا حنا:

فضائله حين استبانت لقومه
دعوه أميناً وهو بعد غلام

ورد الشاعر على المتسائلين عن آيات ومعجزات النبي العربي الكريم محمداً ﷺ وأعظمها القرآن الكريم، كتاب العربية الأول فقال:

يقولون ما آياته، ضل سعيهم
وآياته، ليست تعد عظام
كفى معجز الفرقان للناس آية
علا وسما كالنجم ليس يرام

ثم يشير الشاعر لنصر الله لهذا الدين الحنيف فقال دالاً على وجود اليمام الذي ترك بيوضه على باب غار حراء وخيوط العنكبوت:

كفى نصره فرداً تعاديه أمّة
ومن ينصر الرحمن كيف يضام؟
تدافع عنه العنكبوت بخيطها
ويدفع كيد المشركين حمام

ولأن موضوع القصيدة (من وحي القرآن) فقد ركز الشاعر نقولا حنا على ما جاء فيه من أحكام وآيات وعبر فيها خير العباد والبلاد وفيه سعادة الإنسانية جمعاء، وهو كتاب الله تعالى الذي أنزله بلغة عربية وبأحسن بيان، وهو أكمل الكتب المنزلة فقال:

أتاهم بقرآن السلام رسوله
فطاف بأرجاء البلاد سلام

كتاب هدى لا ريب فيه مشرّع
وللسلم والعمران فيه دعام
مفصلة آياته عربيّة
فصاحبها عز البيان عظام
تلا كتب التنزيل لكن مكملاً
فذا أول التشريع وهو ختام

وشاعرنا نقولا حنا عربي أصيل يفتخر بجدوده العرب العظام، ويشيد بفضلهم لأنهم لأهل الفضل والمعروف ومن واجب الأبناء عدم إنكار فضل الأهل والوالد اللذين علمونا حب الوطن فقال:

لقد حَبّب الأوطان والأهل والد
وإنكار فضل الوالدين حرام
فقدست أوطاني وأكبرت أمتي
أأعذل أن أحببتهم وألام؟

ولا ينسى الشاعر قرية (الرامة) التي غادرها مكرهاً، وترك فيها الأهل والصحاب الذين ودعهم بالدموع، وتغيرت معالمها وسكانها، وحل الغريب محل القريب إذ قال:

إذا ذكر الأوطان أذكر رامة
وأهلاً وصحباً والدموع سجام
تبدلت الأحياء أهلاً بأهلها
وناب عن الزهر الذكيّ ثمام
فيا شجر النور الذي زان مرجها
أتحتك ينمو عوسج وسلام

وقد تشرد أهل الرامة الذين نزحوا عنها، وأصبحوا يفترشون الحصيرة بدلاً من الفرش الوثير، وأصبحت الخيام مأواهم الجديد بدلاً من الدور الجميلة، فقال:

تشتت شمل الأهل في كل بلدة
يمر بهم عام ويقبل عام
وناب عن الفرش الوثير حصيرة
ونابت عن الدور الرحاب خيام

ويختم الشاعر نقولا حنا ملحمته هذه بمخاطبة الرسول العربي الكريم محمداً ﷺ طالباً الإغاثة للاجئ فلسطين المشردين تحت كل نجم، وقد انتابتهم الأمراض والسقم، ولا ينسى الدعاء والعون من المختار الممدوح، ليفرج عنه، فقال:

سألتك يا عون الشريد إغاثة
لمن شرّدوا بين البلاد وهاموا
وجوه علاها السقم بعد نضارة
فلم يبق إلاَّ جلدة وعظام

إلى أن قال:

أتيتك يا حصن الضيف مؤملاً
رضاك فإن تمنن فلست أضام
أجرني وفرّج كربتي وظلامتي
ففضلك موفور وأنت كرام

تحية لذكرى الشاعر العربي الفلسطيني نقولا حنا، الأمثولة بالوطنية وحب الأمة العربية وكتابها المبين ورسولها الأمين.

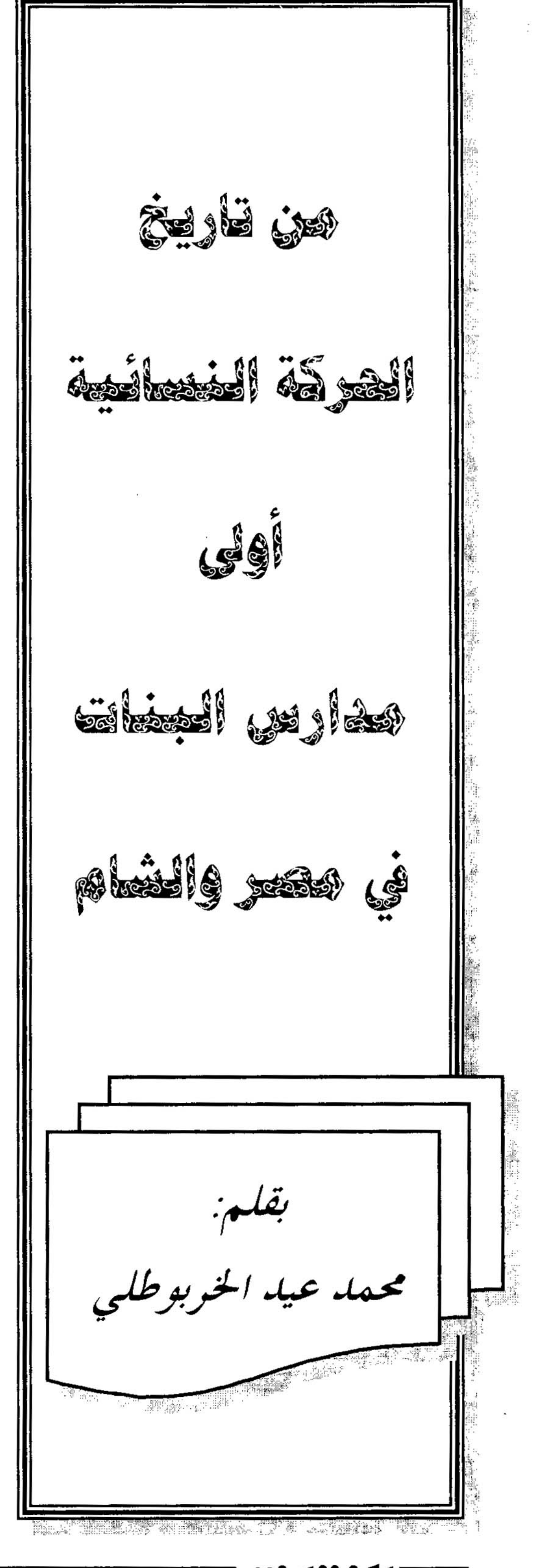



أنت..

شعر : خالد سرحان الفهد

أنـــتِ وجـــه الـــشمس قـــبل الغـــسقِ
وعـــبيرٌ مـــن حفـــيف الحـــبقِ
وولـــوج الفجـــرِ في صـــدر الدجـــى
وحـــديث الطـــلِّ فـــوق الطُـــرُقِ
يـــا عنانـــي حـــين أبـــدو ثائـــراً
وابتهالاتـــي ومـــسرى أرقـــي
يـــا جُمـــوحَ الـــشوقِ في نـــشوته
وبـــريقاً راقـــصاً في حدقـــي
يـــا مـــياه النهـــر حـــين انطلقـــتْ
تـــتحدى قاربـــاً مـــن ورقِ
ونعـــيماً هازئـــاً مـــن خائـــبٍ
وســـراباً في شـــفاه الأفُـــقِ
إتبعـــي دربـــي إذا مـــا اتّفقَـــتْ
وإذا مـــا اخْـــتَلفَتْ فاتَّفِقـــي
فاعـــتقدتُ العـــيشَ إن تعـــتقدي
وأعتـــنقتُ المـــوتَ إن تعتنقـــي



من الملفت للنظر أن أغلب الكتابات التي تعرضت للنهضة النسائية العربية، تبدأ عند قاسم أمين وكتابه - تحرير المرأة ١٨٩٩ - ، لكن إذا عدنا إلى ما قبل قاسم أمين وكتاباته، نجد كتابات - رفاعة رافع الطهطاوي وأحمد فارس الشدياق - قد سبقته.

هذا الموقف جاء نتيجة طفرة فجائية تمثلت بقاسم أمين، لكن الغرابة أن نغفل الإرهاصات التي ظهرت ببلاد الشام، ومن ثم انتقلت إلى مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، والتي اضطلع بها نساء وفتيات ورجال، في سبيل ما أطلق عليه وقتئذ ترقية حال المرأة.

وهذا لا يعني إغفال الدور الريادي الذي لعبه قاسم أمين، أو الدفعة التي أعطتها باحثة البادية ملك حفني ناصف لقضية المرأة العربية في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، فقد كان لها الفضل في نقل هذه القضية من موضوع نقاش يدور داخل الصالونات الأدبية وعلى صفحات الصحف، إلى مسألة مهمة، ويتحدث ويتناقش بشأنها كل رجل، وقاسم أمين بكتابيه تحرير المرأة والمرأة الجديدة استطاع أن يقفز بمشكلة المرأة قفزة هائلة إلى الأمام، حيث لم يتوقف عند الوضع الرهيب للتخلف الذي كانت تحياه النساء في ذلك الوقت فقط، وإنما مد بصره ليبحث في علاقة النساء بالبناء الاجتماعي والنظام السياسي، أي هناك تلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية، فشكل الحكومة يؤثر في الآداب المنزلية، والآداب المنزلية تؤثر في الهيئة الاجتماعية، ففي الشرق نجد المرأة في رق الرجل والرجل في رق الحكومة، وحيثما تتمتع النساء بحريتهن الشخصية، يتمتع الرجال بحريتهن السياسية، فالحالتان مرتبطتان ارتباطاً كليا، هذا الفهم مكن قاسم أمين من تقديم تحليل نفذ إلى صميم البناء

الاجتماعي، مما أدى إلى إشعال موجة عارمة من الهجوم عليه.

بدايات تعليم البنات

لقد وجد الرجل الشرقي أمامه صورة مغايرة، بل ومناقضة لصورة المرأة كما تعودها، كما وجد أمامه علاقته بين الرجل والمرأة تختلف اختلافاً جذرياً عما اعتاده في علاقته مع زوجته، أو قريباته، وكان من الممكن أن يتوقف الأمر عند هذا الحد لو بقي أمر الالتقاء أو الصدام محصوراً داخل دائرة أفراد الطبقة الحاكمة، إلا أننا نجد اهتمام محمد علي بالتعليم واعتماده على الخبرات الأجنبية في إقامة مؤسسة تعليمية جديدة، ثم اهتمامه بإيفاد البعثات إلى إيطاليا وفرنسا وإنكلترا والنمسا، قد أدى هذا بشكل عام إلى تكوين طبقة جديدة من المتعلمين، بدأت تبحث عن وسائل وشروط النهضة، ولعلها بما رأته أو تعلمته في أوروبا، أو بما تعلمته على أيدي الأجانب في مصر، ومن خلال علاقاتها بهم أخذت تبحث أيضاً عن النموذج الأنثوي المناسب للاقتران بالرجل المتعلم، وقد كانت هذه إحدى القضايا التي أثارها فيما بعد قاسم أمين في تحرير المرأة، والمهم هنا أن عملية المقارنة بين المجتمعين الأوروبي والشرقي بوجه عام شملت كل شيء، وأن الإحساس بوجود فجوة بين المجتمعين امتد لكل شيء، ولم يكن وضع المرأة بمنجاة من ذلك، ويمكننا القول أنه خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر بدأ يتكون رأي عام بين المتعلمين على الأقل، يدعو ولو بهدوء وعلى استحياء إلى ضرورة تغيير حال المرأة، ومن الطبيعي ألا يظهر هذا الرأي بشكل واضح في ظل مجتمع كانت أغلبيته تنظر إلى أي همسة للمرأة نظرة شك وارتياب، ولهذا كان أقصى ما يمكن طرحه في ذلك الوقت هو حديث رفاعة الطهطاوي في كتابه - تخليص الابريز ١٨٣٤ - عن المرأة الفرنسية ومكانة الحب في المجتمع الباريسي، والمساواة بين الجنسين، أما أقصى ما يمكن الإقدام عليه في تلك الفترة تأسيس مدرسة لتعليم فنون الولادة، وهي المدرسة التي أنشأها محمد علي ولم يجد لها تلميذات إلا السودانيات والحبشيات، واستلم إدارتها رفاعة الطهطاوي فاستطاع أن يضع اللبنة الأولى في تعليم المرأة، في سنة -١٨٤٢- تعلمت فيها المرأة فن العلاج النسوي والتوليد، وكان لهن في هذا المجال مشفى خاص يحظين فيه بالدراسة العلمية والتمرين، وعلى الرغم من وسائل التشجيع التي اتخذت لدفع النساء إلى دخولها، مثل منحها رتبة - بكباشي - ولها حرية الدخول إلى قصور الوجوه والعظماء، فإن المصريات أعرضن عنها لأسباب تتعلق بتقاليد العصر، ولكن هذه المدرسة سبقتها مدرسة لتعليم البنات في بيروت سنة - ١٨٣٤ - وكانت تتبع إرسالية تبشيرية أمريكية، وبعد عشر سنوات فتحت إحدى الإرساليات مدرسة لتعليم البنات في القاهرة، وشاركت في ذلك الوقت بمد حركة النهضة والحركة الوطنية بكثير من قادتها وعناصرها، وقد استفادت من المناخ العام الذي هيأه إبراهيم باشا الذي حاول تقليد والده في إرساء دعائم دولة حديثة ببلاد الشام أثناء حكمه لها من ١٨٣١ - ١٨٤٠ وفي مصر ساعد سعيد باشا ١٨٥٤ - ١٨٦٣ علها نشر التعليم الأجنبي وإكماله ومحاربته للتعليم الوطني.

وجود هذه المدارس التبشيرية دفع الأهالي إلى فتح مدارس خاصة للبنات، وبدأ الاتجاه الصحيح نحو تعليمهن، وبدأت حركة منافسة بطيئة تظهر بين أهل الشام ومصر وبين البعثات والإرساليات، وبين الإرساليات نفسها، فنجد السيدة جشم آفت هانم الزوجة

الثالثة للخديو إسماعيل تنشئ مدرسة السيوفية أو السنية - للبنات ١٨٧٣ - وقد بدأت بحوالي ٣٠٠ تلميذة، ومن ثم صار يتزايد العدد، وأسست إدارة الأوقاف مدرسة - القربية ١٨٧٥ - فوصل عدد التلميذات في المدرستين إلى حوالي ٥٠٠ تلميذة، وفي نفس الوقت قام الأقباط في مصر بتأسيس مدرستين لتعليم الفتيات سنة ١٨٧٦.

لكن الملاحظ أن عملية تعليم الفتيات اقتصرت على ما يخدم الرجل، ولم تخرج عما حدده أحمد فارس الشدياق ورفاعة الطهطاوي، فالشدياق في كتابه - الساق على الساق ١٨٥٢ - لم يستطع التخلص من فكرة المرأة الأدنى درجة من الرجل، لحادثة جرت معه، ومع ذلك أباح لها تلقي بعض المعارف لكي يتمكن الرجل المتعلم من التحدث معها، أما الطهطاوي فكان أكثر جرأة من صاحبه، ففي كتابه - المرشد الأمين للبنات والبنين ١٨٧٢ - تحدث عن أهمية تعليم الفتاة، وجدده في أمرين، الأول يساعدها لتصبح زوجة صالحة، وثانيها للقضاء على وقت الفراغ الذي هو مفسدة لها، ولكنه في ثنايا كتابه نجد أنه أعطى للتعليم أهمية أخطر حين جعله وسيلة تمكن المرأة من العمل لو اقتضاها الحال، ولا شك أنه كان أكثر اهتماماً بقضية المرأة من الشدياق لكنه كان يحرص على عدم خدش الشعور العام.

التعليم لبنات الذوات

مما ينبغي ذكره أنه بالرغم من كل دعاوي التعليم للبنات، بقي مقتصراً في تلك المرحلة على الأسر المقربة من العائلة الحاكمة، وأسر كبار الموظفين المتنفذين، والأجانب المتمصرين، وكذلك كان الأمر في بلاد الشام، إذ اقتصر تعليم الفتيات على بنات الأسر الكبيرة والعائلات الحاكمة، أما السواد الأعظم من فتيات الطبقة الوسطى والطبقات الشعبية فلم تكن لديهن أي حاجة للتفكير في التعليم، وكيف يفكرن بالتعليم وشباب طبقتهن لم يفكروا بعد بالتعليم.

المرأة تكتب عن قضيتها

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وجد طبقة جديدة من المتعلمين والمتعلمات، مع العلم أن المجتمع مازال منقسماً إلى مجتمع رجالي وآخر نسائي، لكن صارت بعض النساء ممن يستطعن أن يفهمن على زواجهن وأحاديثهن عن النهضة، وصارت بعضهن يقرأن صحفاً أجنبية، وبعضهن استطعن الحديث عن دور المرأة في النهضة المنشودة، وأهم من كل ما مر أن نجد منهم من يمسكن بالقلم ويعبرن عن رغبتهن العارمة في رفع شأن المرأة بشكل عام.

وكانت البداية للعمل الصحفي النسائي في بلاد الشام، ففتحت المقتطف في أعدادها الأولى عندما كانت في بيروت ١٨٧٦ أول صحيفة تفتح صحافتها للأقلام النسائية، فكن ينشرن مقالاتهن من غير توقيع أو تحت عنوان ترجمات من بعض الصحف الأجنبية، لأن المرأة، لم يكن لها الحق في التعبير عن أفكارها، ومما ساعد على تراجع هذا الدور وأدى إلى عدم وجود صحف ومجلات نسائية في بلاد الشام الفتن الطائفية وتقييد الحريات رغم وجود عدد من الكاتبات، فمن المعروف أن السلطان العثماني لم يسمح بإصدار أي مجلة أو صحيفة نسائية، وكان يعتبر ذلك خروجاً عن العادات الاجتماعية والدينية، كما كان يروج له رجال الدين الغير متنورين وكان محاطا ببعضهم، ولكن ماري عجمي أصدرت مجلة العروس ١٩١٠ بدمشق، ونجت

من هذه القيود مريانا مراش فنشرت ديوانها الشعري - بنت فكر ١٨٩٣ - وسمح لها لأنها مدحت فيه عبد الحميد حين صار سلطاناً كما هنأت والدته، ومدحت مدحت باشا والي حلب. هذه الظروف التي عصفت ببلاد الشام، خاصة بعد أحداث ١٨٦٠، دفعت بالكثير من الأدباء والمفكرين بالهجرة إلى مصر، حيث المناخ العام يتمتع بحرية جيدة مقارنة لبلادهم، فعرفت مصر أسماء كبيرة مثل هند نوفل وزينب فواز العاملي وهنا كوراني والكسندره الخوري وكثيرات غيرهن كتبن في الصحف المصرية واصدرن صحفاً نسائية خاصة، وبدأن يتحدثن عن دور المرأة في المجتمع وتطوره وتقدمه.

دور الصحافة النسائية

الصحافة هي أفضل وسيلة لمخاطبة الرأي العام، وهكذا كانت في نهاية القرن التاسع عشر، لذلك ارتبط أسماء رواد النهضة بكل اتجاهاتهم بأسماء الصحف، ومن الطبيعي أن تهتم الكاتبات لعرض قضاياهن بالكلمة المطبوعة والمقروءة، فاقتصرن دعوتهن في كتابة المقالات وإصدار الصحف، مع الأحاديث التي كانت تدار في الصالونات الأدبية، وقد بدأت الصحف تفتح صفحاتها للأقلام النسائية في أواخر القرن التاسع عشر مثل المؤيد والهلال والنيل والأهالي والمقتطف في مصر، وصحيفة لبنان في بلاد الشام، لكن الخطوة الجريئة كانت في إصدار الصحف النسائية الخاصة، فأصدرت الكسندره دي آفرينوه، واستير مويال العائلة، وأصدر سليم سركيس مرآة الحسناء ١٨٩٦ باسم مستعار وهو مريم مظهر.

وفي بداية القرن العشرين زادت هذه الصحف فصدر من عام ١٩٠١ حتى ١٩١٥ حوالي خمسة عشر مجلة نسائية، منها عشر مجلات أصدرتها نساء.

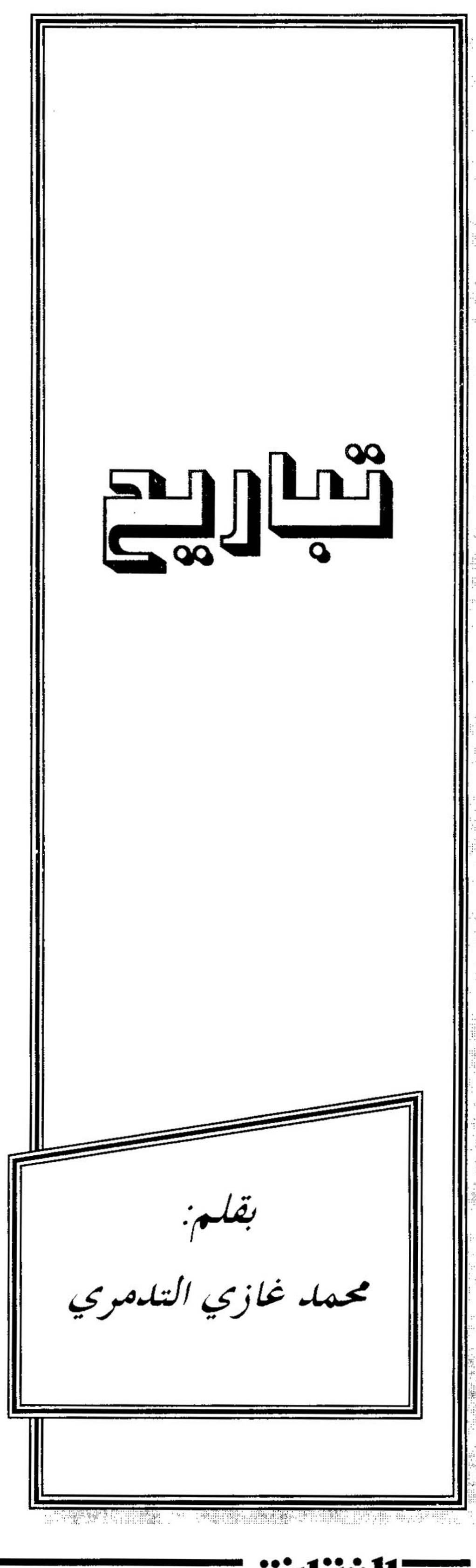
شهدت هذه الصحف والمجلات معارك ومناقشات دارت معظمها حول مسألة تعليم المرأة، وقضية الحجاب لم يغامر أي قلم نسائي أو رجالي بها، وذلك لأنها تخاف الرجل من طلبات النساء، لأنهن كن يتحركن في حمايته وبتشجيعه، لذلك اعتمدت على التعليم لتوفير الزوجة المثالية للرجل، وإذا كتبت وتحدثت عن الحب فهو لأجل الرجل ليجد من تبادله الحب بشكل علمي صحيح.

طريقان متناقضان

المتأمل لحركة المرأة في تلك المرحلة يجد أن تحركها كان في اتجاهين:

الأول: اتجاه نحو تقليد الغرب، ويرى أن ترقية المرأة العربية والشرقية لن يكون إلا بأن تصبح مثل مثيلتها الغربية.

الثاني: اتجاه تمثله زينب فواز ١٨٦٠ - ١٩١٤ فقد رفضت منطلق الاتجاه السابق، واتجه إلى البحث عن التجديد من خلال تطوير الذات، ولزينب فواز عدة مواقف وآراء أدت بها إلى الدخول في عدة معارك، فهي لم تتوقف عند قضية المرأة، إنما امتدت إلى القضية الوطنية، فتعتبر زينب فواز أول صوت نسائي يدعو إلى المساواة بين الرجل والمرأة، كما أنها من ناحية أخرى مثلت أول صوت نسائي دعى إلى مقاومة الاحتلال، فدعت النساء إلى مقاطعة البضائع الأجنبية، ودعت الرجال إلى تكوين أحزاب ليناضلوا ويدافعوا عن حقوقهم، فكانت دعوتها كما قيل عنها - راديكالية أكثر منها إصلاحية - .



تباريح

بقلم: محمد غازي التدمري

ويبقى طيفك البهيّ معلناً حضوره الليلكيّ الدائم في مساحات القلب المولّه، بثرى ترابك البهيّ المضمّخ بعبق الشهادة، وريح الشهداء، فارضاً وجوده الأميري في تلافيف العقل، وتجاويف القلب، موغلاً في دواخل العوالم المرئية، وعبر المرئية، كأنّه أسطورة من أساطير الزمان الأوّل حطّت - فجاءة - في بيداء العمر الآيل إلى غروب حتميّ قدري، فانتضى شامخاً يشع نوراً، يستردّ أيام عجز أوغلت في سنوات عمر مسروقة من دفتر الزمن الرديء، الذي أنهكته التجارب الرّخيصة التي لم تثمر ما يمدّ العمر بدفء الحنان، وشوق الأمان، يفتح للحياة نافذة تطلّ على تلك القيم الروحية التي استعمرتها المادة، يوم ركضنا خلف بريقها المزيّف، فصعّدنا في متاهات الغرور، ومدارات الأنا المغلقة على البعد الذي لا يصل إلى أبعد من أرنبة الأنف، حتى حل طيفك الملائكي يحرّك ما سكن، ويوقظ ما نام، وينبّه ما غفل.

فأية قوة سحريّة حملتها يديك الأميرتين، حتى أحييت الموات، ونضّرت العمر التائه في أدغال الحياة الموحشة، فشعّ العمر من جديد، وتحرّكت الدورة الدموية بنظام وانتظام تمدّ الجسم بالدم النقي، الذي يحرك المشاعر باتجاه القيم والفضائل التي ضاعت منّا يوم تناسينا وجودها، فعمّ القلب ضياء يغسل الروح بماء الندى، ويُعمّد النفس بأقانيم الحياة وقيمها الرائعة، فإذا الدنيا تمتدُ أمام العيون المتفائلة بحر ضياء يبعث الدفء والحنان في النفوس المرهفة، يتسبب على مروجها الخضراء أصحاب القلوب المدنفه، وقد وهبوها الكلمة الطيّبة، والحرف المترف الملتزم بقضايا الوطن والإنسان، متمنّين ألاّ يغيب طيفه بأناشيده وأغانيه، وحكايا الجدّات العتيقات، ومرح أطفاله في حدائق تشرين، وأن يلازمهم ظلاً ناعماً، دافئاً، حنوناً، يدفع عنهم وهج احتراق النفس بنار الأنا التي تكوي النفوس، وتعمي العيون، وتجمدّ حركة الشعور

الإنساني في شرايين القلب، فلا تلبث أن تتمكن من قواهم، وتسلبهم إرادتهم، وبالتالي سترميهم على شواطئ الحياة المنسيّة، وزوايا الطرق الموحشة، كأوراق خريف صفراء ذابلة تدوسها الأقدام، دون أن تعيرها أي انتباه، فيعبرون رحلة الحياة من مبتدئها حتى منتهاها كسحابة الضباب التي سرعان ما تنقشع عندما يلامسها أول خيط من شعاع الشمس، فتختفي دون

أن تخلف وراءها قطرة غيث واحدة تدلك على وجودها .

فلا شي ء يبقى سوى ذلك البريق البهي القادم من سنبلة قمح تختال على زند فلاح نشيط، وحبة زيتون خضراء، تمضي بين مسننات عجلات معاصر الزيت فرحة، لأنها ستمنح طفلاً من بلادي، عروساً من زعتر وزيت يأكلها مسروراً في باحة مدرسته، ومن فوح زهرة أقحوان تعطّر المكان بعبير جهد وعرق الإنسان، ومن شدو راعٍ عتيق يُصعّد سهول وجبال الوطن الممتد ما بين الخضرة والماء، يشدّنا - شئنا أم أبينا - إلى أفيائه النقية، يزرع في قلوبنا أملاً ما انقطع يوماً، ورجاءً ما يئسنا من حضوره لحظة، وإذا بنا في وقفة من وقفات الصحو والنقاء والصفاء، نعود إليك لنرتمي بين أحضانك الدافئة، نلتقي مع الأمل الذي أخرجنا من غابات التلكؤ، ومناخات التسكع في أقبية الذات التي ما عرفنا كيف نتحكم بها، ونوجّه مدارات سيرها حتى شلّت حركتنا، وقيّدت إرادتنا، وأغلقت عيوننا على مشاتل الحب، وغابات النقاء، ومساحات الصفاء، فباعدت بيننا وبين الحياة بحلوها ومرّها، وكأن الواحد منّا ما كان يوماً خديناً وتوأماً للآخر.

لكنّها الأيام يا صاحبي، توقظ فينا - كلما غفلنا - سرّ الحياة فتقوّم أعوجاجنا، وتردّنا - صاغرين - قانعين - إلى شواطئها الدّافئة، وضفافها الآمنة، وجادة الحق والصواب بعد أن نام في قلوبنا يوم أغلقناها على مباهج الأنا المغرورة، وتداعيات الذات الداهشة المقنّعة بألف قناع زيف، فأغرقتنا في دياجير الظلمة، مسكونين بالخوف، مُستعمرين بالقلق والتشاؤم، هائمين في هلامات الألوان المتداخلة، تمجّنا تجاربنا، وتلفظنا إنسانيتنا، حتى هلّ طيفك السحري، يزيل من عيوننا غشاوة الأيام المسكونة بالوهم، ويسمع من قلوبنا غمامات الأسى، التي أرهقتنا ورمتنا في مهاوي المطبات الحياة المرّة، تفتح عيوننا على شعاع الأمل، وهو يُعيد إلينا ذلك البريق الذي فقدناه يوم ركضنا مهرولين خلف المادة، نرتقي جبال التيه، ونمضي معصوبي العيون والضمير، نتلّمس غنى الحياة المادي الذي قصرّ قامتنا، وحجم تطلعاتنا، وجعلنا نخسر حتى نفوسنا، فأعادنا طيفك البهي نجوماً ساطعة في سماء صافية، رائعة تلونها أيدينا، ومواقفنا الثابتة، وتطلعاتنا المستقَبلية، نرسمها بألوان قوس قزح، يرسم أبعاد وخطوط تنامي حرفنا المترف الذي يعرف كيف يفتح للحياة أكثر من درب يطلّ على الأمل الدافئ الحنون.

فكل ما في الكون والحياة يشدّنا إلى ذلك البريق المطلّ من بيارات الحقول والبساتين الخضراء، ومن فوح العرق الصبّيب من جبهة عاملٍ، وجهد معلم، ونضال فلاحٍ، وعين جنديٍ، ومن سحب دخان معاملنا التي تكتب في سفر الحياة حكاية الوطن المسكون بالشهادة والشهداء، وهو يبني ويمضي في دروب المستقبل شامخاً أبياً فكل ما فيه من خير يشدُنا إليه ونحن نمخر عباب الحياة على سفائن العمر، دون أن نعرف في أي ميناء ستتوقف وقفتها الأخيرة.فلنبدع ما يجعل ذلك الوقوف الأخير وقوفاً حقيقياً أبديّاً بما ننجزه من قيم وأفكار، ونتاج إبداعي متميز، ومتجاوز لعصره ومعاصريه، يحمل في مضمونه حبّ الحياة، حاملاً لإنسان اليوم والمستقبل، تباشير ذلك الحب الذي لا ينتهي عند حدود، ولا يتوقف عند حواجز المدن والبلاد والقارات.




شوق وحنين..

شعر: أسامة معلا

أغلى من الطيب ما يندى الفؤاد له

يا ريق القلب أنت الحسن أملحه

إن كنت نوراً فما أحلى ملامحه

أو كنت عطراً فإني اليوم أجمعه

ساومت منك الروح ألاّ تفارقني

لا تدرك الروح حسناً إلاّ حين تلمحه

إن كان حبك ذنباً لست أغفره

أو كان ظلماً فإني لست أنصفه

زمنٌ تمضّى في البعاد وما انتسى

شوقٌ إليك طويلاً سوف أذكره

ناداني منك الهوى فاستبعدت صحبته

وما دريت أني بطول العمر أصحبه




علاقة الأستاذ عبد الوهاب الصابوني بالكتاب



قالوا: إن اختيار المرء قطعة من عقله وكذلك مقتنيات الإنسان تعكس ثقافته ووعيه وشخصيته فعلاقة الإنسان مع الأشياء التي يحبّها ويهيمُ بها تختلف عن تعلّقه بالقضايا العَرَضية التي لا تحضُرُ في ذاكرته وذهنه والشغف بالأشياء يشكّلُ علاقةً وثيقةً من الحبِّ وهذه العلاقة ترسم ملامح صاحبها النفسية، فتبرز منه ما يخفيه عن الآخرين.

وهي علاقة وثيقة تستبدُّ بصاحبها، وتسيطر عليه، وربَّما تقوده إلى المجازفةِ والمشاكل والخللِ في العلاقات الأسرية والاجتماعية، فينفر منه المقرّبون، ويتحاشون الخوض معه. هذا كلامٌ عامٌ، ويشكلُ حالةً تستحقُّ الدراسة بعمق.

إنَّ المربّي الأستاذ عبد الوهاب الصابوني عاشَ حياته كما تحلو له وكما يتمنَّاها فشغل نَفْسَه عن كل شيءٍ إلاّ عن الكتاب، عاشَ حياتَهُ بحثاً عن الكتاب وفي الكتاب فهو الولد والصديق يعايشه عن قرب، ويلامسه برقّةٍ وشفافيّة، يحضنه برعايته وعينيه يعطيه شيئاً من نبضه فيسكب عليه دفق مشاعره وهذه العلاقة ليست عارضةً بل تبدو متجذّرة ومتأصلة في مسار حياته فمكتبته الثريَة بعددها ومضامينها وتنوّعها وخزائنها تثبت ذلك ووصيّته التي سطّرها ووثّقها وهو يتبرَّع بها كاملة لكلية الآداب تثبت مدى هذه الحبِّ والهيام، فكان حريصاً على عدم إضاعتها

ونثرها في البيوت وعلى الأرصفة كغيرها من الكـتب التـي بيعت بثمن زهيد، لا يتناسب مع قيمـتها وبذلك يكون قد سنَّ سنَّةً حسنةً جديرة بالتقديـر وقد قدّرت ذلك كلية الآداب، مَنَحَتْها قاعـة ومقرّاً خاصاً حمل اسمَه، وعيَّنَتْ عليها الأسـتاذ حـسن بيضه لأكثر من عقدين وكان حريصاً عليها وهي تنقل من المبنى القديم إلى المبنـى الجديـد. إنَّ استعراض نصِّ الوصيَّةِ يوصِـلنا إلى حقائق جوهرية كامنة في أعماق هذا الإنسان.. جاء في وصيَّتَهُ:

((وفاءً مني لتراث العرب العظيم الذي حقَّقَـتْه أمّتـي والتـي أحبّبْتُها عمري، وهِمْتُ بمآثـرها الخالـدات على مرِّ العصور، ومنها مكتبتـي التي تعبْتُ كثيراً في جمعها وتبويبها ودرسِ كـلِّ كتاب فيها ثمَّ تسجيلِ كلَّ أولئك في فهرس عام هذا قد شدَّ عزمي على:

١- أن أُهـدي مكتبتـي هذه إلى كلية الآداب بجامعة حلب.

٢- أن أهدي جميع خزائن الكتب.

٣- أن تكـون بعد موتي، فأنا لم أفرغ منها بعد.. ولا أزال شَغِفاً بها مفتوناً))

هذه الوصية المحكمةُ الموجزةُ تكشف بجـلاء علاقة الصابوني بالكتاب. فحبُّه للكتاب دافعُـهُ حبُّ أمّتِه، وتمجيدُهُ لتراثها الخالد. هذا الحـبُّ والتمجـيد للتـراث كـان دافعاً للهيامِ والعشق لمآثرها الخالدات.. هذه الوصيَّةُ تنبي عمّا في أعماقِه..

رحلة الصابوني مع اقتناء الكتاب بدأت باكـراً، وهـو فـي وطـنه سوريا في مرحلة الدراسـة مـا قبل الجامعية وانتقلت معه إلى مـصرِ أثناء دراسته الجامعية وكان المناخُ في مـصر مُـتاحاً لـشراء الكـتب فهي متوفِّرة ورخيصةٌ.

فـي مكتـبة الـصابوني يتجلّى عشق الـصابوني وشـغُفه بالكـتاب، يعامله بصدق ودفء وكأنـه قطعـة مـن لحم ودم، ويقتنيه بـرغبة، يـصنِّفه ويجلّده ويلخص أفكاره على هوامـشه ويعلِّـقُ علـيه، ويضيفُ الكثير من المعلـومات. وتفـسيرُ هـذا يـبدو في كتابيه (شـعراء ودواويـن) و (عيون المؤلفات) في الكتابـين تـصنيف وتـبويب وإلمام بالدواوين الـشعرية التـي اقتـناها وكثيـرة هي النسخ المكررة للشاعر الواحد، وقد أغفلَ ذكر الشعر الحديث وكذلك في كتاب (عيون المؤلفات) وقد حققـه الأستاذ الباحث محمود الفاخوري ونشر بعـد وفاته، في هذا لكتاب تبرز جهودُ المحقق وإضافاته التي كلَّلَتْ جهودَ المؤلف.

كـان الـصابوني يـسعى إلـى المهمِّ والمفـيد وربمـا التمايز في الاقتناء ترى في مكتبـته أكثر من طبعةٍ للديوان أو الكتاب وفي كثيـر مـن الأحيان يجري المقارنات بين هذه الطـبعات وفـي مكتبـته كتبٌ ودواوين نادرة تحـتاج لمـن يكـشف عنها فالكتابان يشكلان

إضـــافة للمكتــبة العربية، ويقدِّمان مادة ثريّة وسريعة لطالبي العلم والمختصين.

جـرت العادة في المكتبات الخاصة أن تمـيل إلى التخصّص الذي يميلُ إليه أو يحمله صــاحبها فــتلك مكتــبة تحوي الكتب العلمية وأخــرى القانونــية وبعضها الدينية أو الأدبية لكــنَّ الصابوني لم يقتصر على ذلك فقد حوت مكتبــته الكــتب المقدّســة والفنــية والعلمية والأدبــية والمتــرجمة والعــربية وهذا يذكرنا بمكتــبة الأســتاذ الكبير عبَّاس محمود العقاد وربما يكون متأثراً به أثناء دراسته في مصر.

إن حــرص الصابوني على كتبه جليٌّ، واهــتمامه بــارز، فاقتــناء الخزائن الجميلة والنفيسة، وتبويبُ المكتبة وفهرستُها، تدعونا للإقــرار بهــذا وهذه الكتب تعكس الكثيرَ من طــباعهِ فهــو يميل إلى النظامِ والرتابةِ والدقة والحفــاظ علــى المقتنيات. وهذا معروف عنه ومــا اختياره لتلك المختارات الأدبية المصطفاة من أمَّهات الكتب إلاَّ دليل على ذلك وقد أوردَها فــي آخــر كــتاب شعراء ودواوين. لا تنتهي علاقاتــه بالكــتاب سريعاً بل يقترب منه كاشفاً مــنهجه وموضعه ومبدياً رأيه في أغلب الكتب التي اقتناها والكتابة على الهوامش تثبت ذلك.

إن خــوفَ الــصابوني على كتبه التي أحــبَّها وعشقها وتعب في سبيلها دفعه للتبرّع بهــا كــي تبقــى في أيدٍ أمينة وبذلك يكون قد تجــاوز مأزق الكثيرين من الأدباء والمفكرين الــذين انتشرت كتبهم ومكتباتهم على الأرصفة ومداخل الأبنية وبعضها أكلها العفن والجرذان في الأقبية.

هــذا الحــرصُ والحبُّ، وهذه المكتبة الغنيَّة التي أغنت ثقافته وقدَّمته أديباً بليغاً في رواية (عصام) ما كانت لتبعث فيه روحَ البحث والدراســة فلم يقتحم عالم الدراسات والأبحاث ولم يحاول أن يجمع ما اكتسبه من هذه الكتب فــي التألــيف المنــتج الفعــال في وقت كانت الــساحة الأدبــية والثقافــية تحفل بالدراسات وتغلــي بــالآراء والدراسات ووجهات النظر. فأين مقالاتُهُ وأبحاثُهُ في هذا المعترك؟

يخيلُ لي أنَّهُ كان نزقاً، والبحث يحتاج لرويّةٍ وتقبُّلٍ لآراء الآخرين وهذه لا يقدر على تحمُّلهــا وربَّمــا كان يخشى الخوض في هذه المهاتــرات بعــد مهاتراته مع الأستاذ الدكتور محمــد خيــر الحلواني حول كتابه (اللّباب في النحو).

يبقى الصابوني أنموذجاً له خصوصيته وتفــرُّده، ولــه فَــضْلُهُ فيما قدَّمه لطلاب كلية الآداب الــذين اســتفادوا مــن مكتبته، وحبُّه للكــتاب يقــرِّبه إلــى فريق من الأدباء اللذين تمكنت علاقتهم مع الكتاب كالجاحظ وأبي حيّان التوحــيدي وابن رشد والعقاد والدكتور محمد حموية ولكلٍّ منهم قصة طريفةٌ...